الامتحان الأكبر

١٤١٠/٥/١٢هـ

الامتحانات التي يمر بها الإنسان في حياته كثيرة، ينجح في بعضها ويخفق في بعضها الآخر.. ومهما كانت أهمية هذه الامتحانات، فإنها تبقى محدودة القيمة إذا كانت تتعلق بشؤون الدنيا.. ذلك لأن الدنيا في حقيقتها محدودة القيمة إذا ما قيست بعالم الآخرة.

وقد ينصرف الإنسان بكلّ قواه إلى امتحانات الدنيا سعياً إلى النجاح فيها، وحرصاً على سمعة طيبة يجنيها.. وهذا ما نجد صداه في كل مجتمعٍ بشري.. حيث يصنِّف الناس بعضهم بحسب قدرتهم على تجاوز امتحانات الحياة بكلّ صورها وأشكالها.

فهذا ناجح في تجارته.. وهذا في وظيفته.. وذلك في علاقته الاجتماعية، إلى آخر شؤون الحياة وقضاياها.

هذه الكلمات ليست فتحاً جديداً في مجال الكتابة، وليست غائبة عن أذهان الناس، ولكنها وردت هنا تمهيداً لما رأيته ذات يوم في مجلسٍ من المجالس التي يجتمع فيها الناس

يخوضون في أحاديث شتَّى.. تتصل ـ غالباً ـ بشؤون الحياة وقضاياها.

كان المجلس يضم أجيالاً من الناس؛ شيوخاً.. وشباباً يقتربون من سن الشيوخ، وشباباً آخرين إلى الصبِّا أقرب.. وغرق المجلس في أحاديث الحاضرين.. ما بين حديث عامٍ يلامس حياة البشر.. وما بين حديثٍ خاص يروي فيه صاحبه تجارب خاصة، أفادها من رحلته مع الحياة، وكثر في ذلك المجلس الحديث عن الامتحانات «معناها المعروف الآن» امتحانات الدراسة بمراحلها المختلفة.

وأفاض في هذا الحديث بعض من تجاوز كلَّ الامتحانات الدراسية، ممَّن أصبح اسمه يقترن بحرف الدال، أو غيرها من الرموز العلمية الحديثة.. هذه الرموز التي أدخلت تحت مظلّة العلم أقواماً، ليس لهم في مجال العلم شروى نقير، وكان أصحاب هذه الرموز في ذلك المجلس يتحدَّثون بفرحة غامرة عن تجاوزهم لصعوبات الامتحان بتفوُّقٍ أو بغير تفوُّق حتى إنهم لا يخشون الآن امتحاناً.. ولا يشعرون بجوِّه «المهيب»، إلاَّ عندما تقترب امتحانات أبنائهم.

وطال الحديث في هذا الجانب.. واستغرق من المجلس

أكثر وقته.. وبينما كانت النفوس تستمع إلى تجربة فلان في امتحاناته.. أو في وقوفه أمام لجنة المناقشة التي تقرِّر منحه الدرجة العلمية .. على ما في ذلك من صعوبة.. وحرج.. إلخ.

في هذا الخضم الهائج من أحاديث الامتحانات.. انبعث صوت له هيبة.. وعلى وجه صاحبه وقار.. وسأل:

تحدثتم عن الامتحانات كثيراً.. وبدت لنا فرحتكم الغامرة بتجاوزكم لها ولكنكم نسيتم الامتحان الأكبر!

وشخصت العيون إلى الرجل.. وكان جلال الشيخوخة قد كساه مهابةً وإجلالاً، ومضى في حديثه قائلاً:

مالي أراكم قد وجمتم وجومَ من كان غافلاً عن أهم أموره مشغولاً بما دون ذلك؟ نعم الامتحان الأكبر الذي لا يتجاوزه إلا المجدُّ، هناك لا تقفون أمام لجنةٍ مكونة من ثلاثة أشخاص أو أربعة.. ولا أمام مائة من الحضور أو مائتين.. ولكنكم تقفون أمام الحي القيوم الذي يعلم كل ما تفعلون.. وأمام الخلق جميعاً منذ آدم إلى قيام الساعة، هناك النجاح أيُّها الغافلون!..

وسكت الشيخ.. وسكت الناس.. ولو نطقوا لقالوا: إي والله هناك النجاح..

*****

لكل مسافر إلى الخارج
مع التحية

١٤٠٧/٥/١٢هـ

لم تكن حماسته وهو يتحدث إليَّ لتخفى عليَّ، وأنا أرى آثارها واضحة في ملامح وجهه.. وكان حديثه مفعماً بالصدق.. وممزوجاً بالأسف على التفريط في أمورٍ، ما كان يلتفت إليها من قبل.

تحدث عن رحلته تلك إلى بلدٍ من بلاد أوربا.. وكانت كلماته قادرةً على أن تضعني في إطار من الإصغاء والمتابعة والاهتمام.

ليست المرة الأولى التي أستمع فيها إلى صاحبي يحدثني عن رحلاته «التجارية» إلى الخارج.. فما يكاد يعود من رحلته إلا وأعرف من أخبارها الكثير.

ولكنَّ رحلته هذه كانت ذات مذاق آخر.. وكان لها معانٍ أخرى..

لم يحدثني صاحبي عن تجارته ولا أعماله التي أنجزها.. ولا عن متاعب الرحلة ومشاقها.. ولا عن وسائل «التمويه»

التي يستخدمها بعض رجال الأعمال في الغرب، منتهزين فيها «الطيبة» التي يتعامل بها بعض التجار المسلمين، كل ذلك كان بعيداً عن مجال الحديث هذه المرة.

فبماذا كان يحدثني صاحبي؟.

قال: لقد شعرت بحسرةٍ كبيرة وأسفٍ مؤلم، وأنا أستمع إلى كلمات مضيئة كلَّ الإضاءة، ولكنها بالنسبة إليَّ محرجة كل الإحراج.. تتحدث بها إليَّ تلك السكرتيرة في إحدى الشركات الأجنبية.

صحيح أنني لم أكن أتوقع أن أسمع منها ذلك الكلام.. عفواً، لم يكن كلاماً، ولكنه كان سهاماً قاسية تتوجه إلى قلبي، وتنطلق من لسانها على هيئة حروفٍ وكلمات.

سبحان الله !.. أإلى هذه الدرجة بلغ أثر كلمات تلك الفتاة من نفس صاحبي ووجدانه؟..

سألته هذا السؤال.. فقال: نعم وأكثر من ذلك.

قلت: فماذا قالت لك؟

قال: لاحَظَت وأنا أفتح حقيبتي الكبيرة لأخرج بعض «الملفات» الخاصة بالشركة التي تعمل فيها.. أن في حقيبتي

عدداً من الملابس غير قليل، وفيها من الأدوات التي يستخدمها المسافر للعناية بمظهره أصناف متعددة، وفيها بعض الهدايا المغلَّفة بإتقان كنت قد أعددتها لتقديمها إلى بعض أصدقائي من رجال الأعمال في تلك الشركة.

وقد رأيت على وجه تلك الفتاة علامات استغراب ودهشة.. بل ورأيت آثار «تضايق» وعدم رضا.. فقلت: لعلها تتوق إلى هدية من الهدايا.. فمددت يدي إلى حقيبتي وناولتها واحدة منها.

وهنا بدأت توجه إليَّ كلماتها «السهام».

سكت صاحبي وقد بدت آثار الانفعال على وجهه.

قلت له: أكمل.. قل لي ماذا قالت لك تلك الفتاة؟

قال: قبل ذلك أحب أن أؤكد لك أننا نحن المسلمين السبب الرئيسي في تنفير كثير من الناس في الغرب من ديننا.. قلت له: دعني من هذا فإن ما تقوله أمر نعرفه معرفة جيدة، ونسأل الله أن يعيد إلى أبناء الإسلام رشدهم، حتى يكونوا على مستوى دينهم عندما يسافرون إلى خارج بلادهم.

قال: أنت الآن تدخل بنا إلى الموضوع.

عندما مددت يدي بالهدية إلى تلك الفتاة، نَظَرت إليَّ نظرات لها معنىً عميق.. قالت: هل أنت مسلم؟

قلت: نعم..

قالت: ومقتنع بدينك، ومؤمن به تمام الإيمان؟!

قلت: نعم..

قالت: وتتمنَّى أن يدخل الناس في دينك و يؤمنوا به؟

قلت: إي والله إن ذلك يسعدني ويفرح قلبي..

قالت: فماذا صنعت أنت لدينك؟

يقول صاحبي:

فاجأني سؤالها الأخير.. وقعت الهدية من يدي.. أحسست أن قطرات من العرق البارد بدأت تبرز على جبيني.

قلتُ لها: أنا تاجر ورجل أعمال، وعندنا من الدعاة من يقومون بواجبهم نحو ديننا.

قالت وكانت بسمتها ساخرةً مؤلمة.. وقد وجهت نظرها إلى حقيبتي التي كانت ما تزال مفتوحة:

هذه حقيبتك .. ملابس.. أحذية.. أدوات مختلفة خاصة

بمظهرك، حتى ملمّع الحذاء أراه في حقيبتك.. وزجاجات عطر من أغلى ما أعرف من العطور.. وهدايا مغلّفة بطريقة جميلة.. حقيبتك هذه معرض متنقل.. كلّ ما تحتاجه في سفرك موجود فيها!..

ولكن أسألك:

هل في حقيبتك هذه نسخة من القرآن!.

قال صاحبي.. وهنا انفرجت أسارير وجهي وقلت لها في ثقة: نسخة القرآن في حقيبتي اليدوية، فأنا أنزّه كلام الله عن أن أضعه مع ملابسي.

قالت وكانت ما تزال واثقة من لهجتها ـ: هذا شيء جميل، ولكنني أودُّ أن أسألك سؤالاً آخر: هل فكرت وأنت مسافر من بلادك أن تحمل معك بعض الكتب الصغيرة جداً، والمترجمة إلى لغات غير العربية فيها شرح للإسلام وتعاليمه، ومبادئه العظيمة؟

قلت لها ـ وقد كان سؤالها هذا أكثر إحراجاً لي ـ: لم أفكر!

قالت: لماذا لم تفكر في ذلك؟ ألست مسلماً مطالباً بتبليغ الدعوة؟ ألا ترى أنَّ علاقاتك القوية مع بعض الشركات هنا

تؤهلك لأداء الدور.. ثم ألا ترى أن حقيبتك هذه تتسع لحمل عدد غير قليل من تلك الكتب؟! وسكتت قليلاً ثم قالت:

بإمكانك أن تحمل معك تلك الكتيبّات عن الإسلام، وتوزعها بطريقة فيها ذكاء وحسن تصرُّف.. مثلاً.. عندما تفتح حقيبتك اليدوية في مكان ما بإمكانك أن تضع نسخة من الكتاب أمامك حتى يراها من حولك.. وتقدمها هدية لمن تجد في عينيه فضولاً ورغبةً في معرفة ما فيها.

وقالت: وقد زادت لهجتها قوَّة وثقة:

أنا لم أسلم بعد.. ولكنني قريبة من الإسلام.. لقد صدّني عن الإسلام بعض المسلمين الذين رأيتهم هنا.. كانوا نماذج سيئةً أصابتني بصدمة.. كنت قاب قوسين أو أدنى من الإسلام.. ولكن تلك النماذج خيَّبت أملي.. غرست شجرة التردُّد في داخلي.. ولكن ذلك دفعني إلى أن أكثر من القراءة عن الإسلام وقرأت .. ثم أتيحت لي ذات يوم فرصة اللقاء بشابٍ مسلم كان مثالاً للالتزام بدينه والحرص عليه، فأعاد إلى نفسي الثقة في دينكم..

قال صاحبي:

كنت أستمع إلى كلامها وأنا أراجع نفسي.. أقلب صفحات

رحلاتي الماضية كلّها.. وأتساءل بحرارة.. كيف غفلت عن هذا؟

كيف نسيت هذا الدور العظيم الذي تذكرني به اليوم فتاة غير مسلمة تبحث عن النور، وهي تعرف مصدره، ولكنها ترى من أهله من يحول بينها وبين الاستضاءة به؟

ورحتُ ـ لحظتها ـ أردِّد: ما أكبر جنايتنا على ديننا، وما أعظم تفريطنا في الدعوة إليه!..

قلت لصاحبي.. وماذا صنعت بعد ذلك؟

قال: لملمت حقيبتي.. وحملتُها وخرجت بعد أن عقدت العزم على أن أقدِّم لديني جزءاً من جهدي ووقتي.. الذي كنت أبذله كله من أجل تجارتي وعملي، وكان من أوَّل ما صنعت أن دعوتُ تلك الفتاة إلى الاتصال بالمركز الإسلامي في تلك المدينة.. وقد أسلمت فيما بعد.. وحسن إسلامها.

أما أنا... فلما عدت إلى المملكة، توجهت إلى الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ودار الإفتاء.. وبعض الجامعات.. ورابطة العالم الإسلامي.. فأدهشني ما رأيت من كتب ومنشورات بأكثر اللغات المعروفة في العالم، فيها بيان للإسلام، وتفصيل لتعاليمه ومبادئه السامية، وبدأت أملأ

حقيبتي بأعداد من تلك المنشورات والكتب، بدلاً من ملئها بما يزيد عن الحاجة من الملابس والأدوات.

كان صاحبي يتحدث وعلى ملامحه آثار الصدق.. والصراحة والألم لما مضى، والفرحة بما يقوم به الآن من جهد مشكور في خدمة دينه، وسكت صاحبي.. وكأنما دعاني إلى السكوت.. فسكتُّ.. ولكن فؤادي كان يتساءل:

ماذا لو صنع كل مسافر من بلادنا إلى الخارج ما صنعه صاحبي هذا؟ سؤال كبير!

والإجابة عنه أن يبادر كل مسافرٍ قرأ هذا المقال إلى تنفيذ ما نفذه صاحبي، وما أصدق ما ورد عن الرسول ﷺ: «كل منكم على ثغرٍ من ثغور الإسلام، فالله الله أن يُؤتى الإسلام من قبله».

وأخيراً أقول: ما أسهل طريق الدعوة لمن يريد أن يسلك.

*****

قضية المرأة ... من جديد

١٤٠٨/١١/٦هـ

تطرح قضية المرأة في بعض صحفنا هذه الأيَّام بطرقٍ مختلفة، تؤدي في مجموعها إلى الرأي الذي يدعو- بإصرار - أنّ تشارك المرأة في حركة التنمية وخططها المتعاقبة في بلادنا.

ولكنَّ السؤال الذي يستوقفنا هنا هو: كيف تتحقَّق هذه المشاركة؟ وفيم تتحقَّق؟.

بادئ ذي بدء أدعو بعض الإخوة الكتاب الذين يطرحون موضوع عمل المرأة في كتاباتهم مستخدمين عبارات ومصطلحاتٍ وعناوين أكل عليها الدهر وشرب.. أدعو هؤلاء الإخوة إلى الالتفات إلى الوراء، للإطلال على ما كان يكتب عن قضية المرأة في البلاد الإسلاميةفي مطالع هذا القرن الميلادي.. أدعوهم أن يتأملوا تلك الدعوات وما كانت تستخدمه من مصطلحات وعناوين براقة.. فعندها سيجد إخواننا أنهم يعيدون ويكررون ما كان قد قيل، وسيعرف هؤلاء الإخوة أنهم اليوم يكتبون لمجتمع فيه - والحمد لله - وعي وإدراك لجذور الدعوات البرَّاقة، التي تطرح نفسها على هيئة

مقالةٍ صحفية، أو برنامجٍ مرئي أو مسموعٍ.. وهم عندما يعرفون ذلك مطالبون بأنْ ينظروا إلى هذه القضية «قضية المرأة» نظرةً تتكئ أوَّل ما تتكئ على حكم الله وشريعته.. ثم بعد ذلك ينطلقون في طريقهم للبحث عن حلول لما يسمَّى الآن بمشكلات التنمية وحاجتنا فيها إلى «النصف الآخر»، أو «النصف العاطل» أو...

مشكلة المسلمين في هذا العصر ضعف «الحس الإسلامي» عندهم.. فهم عندما يطرحون قضية من القضايا للنقاش يخضعونها لكل مقاييس العقل البشري، وينسون أن يخضعوها لمقاييس الله، ولذلك فإنَّ آراءهم تتسم بالخلاف الشديد.. وبالارتجالية القاصرة.. التي تبدو في أوَّل الأمر سليمة نافعة، ثم يتضح مع الأيام فسادها.

وقضية امرأة تأخذ مكانها في أول قائمة القضايا البشرية.. لأنها تتعلق بأهم أركان المجتمع البشري.. فجدير بكل كاتب صادق مع الله أولاً، ثم مع نفسه والناس ثانياً، ألاَّ يتناولها متهاوناً بها، غير آبهٍ بالنتائج السيئة التي تؤدي إليها حينما تناقش بطريقة شخصية ارتجالية، إن الذين نادوا بإنقاذ «النصف الآخر» على حد زعمهم في العالم العربي والإسلامي ابتداءً من المستعمرين، ومروراً بأتباعهم في هذا الجانب

كقاسم أمين، وانتهاءً بما يُدار ـ اليوم ـ حول هذا «النصف» من آراء ومناقشات، إن هؤلاء جميعاً يدعون وهم يعلمون أو لا يعلمون إلى تدمير ذلك النصف وليس إلى إنقاذه، ومن ثم ينال التدمير المجتمع البشري كلَّه.

في الغرب صيحات جادة وصادقة منذ سنوات طويلة، تدعو إلى كبح جماح هذه الحرية «القاتلة» التي أُتيحت للمرأة، وإن كانت صيحات ضئيلة تضيع في خضم الطوفان، إلاَّ أنها دليل قويٌّ على سوء ذلك المسلك.. ودرس لنا نحن الذين لازلنا ـ بحمد الله ـ نقف على الشاطئ بعيداً عن معترك الأمواج الهادرة.

نُوديَ في بلادٍ إسلامية قبلنا بما يُنادى به اليوم عندنا من دعوة للمرأة أن تعمل لتساهم في دفع خطط التنمية إلى الأمام.

وتردَّدت في تلك الدولة كلمات: «الدخل القومي»، و«الاقتصاد الوطني»، و«الثروة الوطنية»، إلى غير ذلك من الكلمات الكثيرة.. وكانت حجة الداعين إلى عمل المرأة أن الوطن بحاجة إلى سواعد النساء، حتى لا يتعطل نصف المجتمع.

وماذا كانت النتيجة..؟

راجت أسواق المسارح المنحرفة.. وبيوت الضياع الدنسة، وتراجعت خطط التنمية.. وتضاءل الاقتصاد، وأصبح الناس يعيشون حياةً فيها قدر كبير من الشقاء والتعاسة.

ثم... أليس هناك عدد كبير من الشباب العاطلين عن العمل؟ لماذا لا ننادي إلى إتاحة فرص العمل لهم بدلاً من المرأة، مادمنا بحاجة إلى دفع خطط التنمية إلى الأمام؟

نقول لإخوتنا: تأملوا خُطَا مَنْ سار أمامكم، حتى تأخذوا العبرة وتستفيدوا من الدرس والله الموفق.

*****

عندما ينعقد اللسان

١٤١١/٦/٢٠هـ

عندما تشرف بك الطريق على واحةٍ غنَّاء... يداعبها نسيم عليل... ويستسلم لراحتها موجٌ هادئ، ينساب على سطح نهر عاشق لتلك الواحة... وتغرِّد فيها العصافير من كل صنفٍ ولون.. ويستقبلها الفجر ببسمته الجميلة استقبال محبٍ وامق.. ويودعها النهار ببسمته الحزينة المرسومة على ثغر الأصيل، وداع لهفةٍ وشوقٍ إلى لقاء جديد.. عندما تطلُّ على هذه الواحة.. وحولها هذا المهرجان الرائع من جمال الطبيعة، فإن لسانك سيعجز عن لمِّ شتات كلماتك المبعثرة.. وعن حمل مشاعرك الغامرة.. وعندئذٍ ينعقد اللسان.

وعندما ترى الغيوم تجوب السماء صغاراً وكباراً، خفافاً وثقالاً، وقد وصل حنينها إلى سمعك رعداً.. وإلى عينيك برقاً، وإلى أديم وجهك رذاذاً، فإنك عندها ستشعر بأن الكلمات تتلاشى.. والأحرف تضطرب.. وعندئذٍ ينعقد اللسان.

وعندما تقف وقفةً أصيليةً.. تنظر إلى موكب النهار الذي يحزم حقائبه للسفر.. وتنظر إلى لون الشمس الممتقع وهي

تلقي على الأرض من حولك نظرة وداعٍ صفراء.. وتنظر إلى كثبان الرِّمال، وقد نظر بعضها إلى بعض نظرة إشفاقٍ من ظلام الليل المقبل... وقد توزَّع شعاع الشمس الباهت عليها مكوناً أجمل منظرٍ يمكن أن تراه عين.. فإنك عندها ستشعر بنشوة الإعجاب.. وبانكسار الحزن، وأنت ترى منظر وداعٍ رائعٍ يجري أمام عينيك.. وعندئذٍ ينعقد اللسان.

وعندما تجلس أمام شاشة «الرائي»، تستعرض ما يجري في أرض الله الواسعة من سباقٍ على الحياة.. وصراع على السيادة، ولقمة العيش، إلى غير ذلك من شؤون الحياة.. ثم تتسمَّر عيناك أمام منظرٍ رهيب تنقله إليك «آلة التصوير» من فلسطين ولبنان.. وأفغانستان.. وأفريقيا السوداء.. والكويت، وما أدراك ما الكويت!.. حيث تظهر أمامك أصابع البغي والعدوان.. وتبرز مكائد الطغيان.. فترى من خلال ذلك جثث الأبرياء تتناثر.. ووسائل الدَّمار تتسابق على تمزيق الأشلاء.. وترى آباءً يستغيثون.. وأطفالاً يبكون.. وأمهات يرسمن بكآبة وجوههنَّ لوحةً قاتمة لهذا العصر الرَّهيب.. عند ذلك.. ستشعر بالغثيان.. وخيبة الأمل.. وقسوة الطغاة.. وعندئذٍ ينعقد اللسان.

وعندما تبني علاقة صداقة ومودة مع صديق حميم..

وتسافر معه في دروب المحبة والوفاء.. تستظلاَّن بظلّ الأخوَّة.. وتستنشقان عبير الصفاء.. وتحملان أعباء الحياة بكل ثقة في الله تعالى ثم في تعاونكما.. وتلاحمكما.. ثم تمضي بكما الأيام... وتتغيَّر ملامح الحياة من حولكما.. ثم تفتح عينيك ذات يوم فلا ترى بجوارك صديقك الحميم.. وتذهب مذعوراً تبحث عنه في كل مكان.. ثم تراه ولا تكاد تفرح برؤياه حتى يلفحك منه هواء يخالطه الغبار.. وتدبُّ في أوصالك من حديثه برودةٌ وفتور.. وتقلِّبه على كل الوجوه، فلا تجد منه إلاَّ نكراناً للجميل.. وجحوداً للحب.. وكفراً بالأخوَّة الصادقة.. فإنك عندها ستشعر بضآلة الحياة وفظاعة النكران... وعندئذٍ ينعقد اللسان.

وعندما يختلط ضوء البر مع ظلمة الليل، فترى من ذلك سواداً ممزوجاً ببياض، وتشعر حين تتأمَّل سحنة الليل أنك أمام لوحة رائعة رسمتها أنامل النجوم ووزعت ألوانها... ثم يذهب بك الخيال بعيداً، فتشعر أنك من الليل في واحة.. لها من حفيف الأشجار إيقاع جميل.. ومن هبَّات النسيم أنفاس دافئة.. ومن عبق الأزهار عطرٌ ساحر أخَّاذ ثم توغل في دروب الخيال.. فترى نفسك ممتطيا حصان الليل الأدهم، وقد غدا القمر غرَّةً في جبهته السمراء.. وهو يجوب بك آفاق الكون

الفسيح فترى نفسك كالريشة في مهب الرِّيح، وكالذَّرة الصغيرة في الفضاء الفسيح.. وتبرز أمامك عظمة الخالق.. في عظمة هذا الجزء الضئيل من كونه العظيم.. إذا بلغت من مدى ليلك الحالم هذا المبلغ، فإنك عندها ستشعر بضآلة الإنسان المتجبِّر.. أمام هذا الكون الكبير، وعندئذٍ ينعقد اللسان.

وفي كل هذه المراحل ـ وفي غيرها ـ ستحسُّ بعظمة الدين الحنيف ودوره الكبير، في توجيه أذهان البشر إلى اللجوء الصادق، والتعلُّق الخالص بالله تعالى خالق كلِّ شيء ومبدعه.. وما أجمل أن يقول الإنسان عندما يشعر بانعقاد لسانه أمام مظاهر الكون البارزة ومسارب النفس الغامضة، «سبحان الله العظيم»! ففي هذه الجملة الجميلة الرائعة تتسكب كل معاني الدهشة، وبين حروفها المضيئة تُفَكُّ عقدة اللسان.. «سبحان الله العظيم»! تصغر أمامها الأشياء وإن كبرت.. وبها يوجِّه الإنسان ما رآه من معجزات الحياة ومظاهرها الكبيرة إلى العزيز الحكيم، الذي أوجدها وهو بها أعلم.. وهي عليه أهون.

قارئي العزيز أرأيت معي جمال هذا الإيقاع الرائع الذي تنطق به حروف هذه الكلمة المشرقة «سبحان الله العظيم»؟!

*****

حتى لا تختلط الأوراق

١٤١١/٢/٢٧هـ

الأمة التي لا ترتب أوراقها على ضوء مبادئها وثوابتها الدينية والفكرية، تظل عاجزة عن استيعاب حقائق الأحداث التي تحيط بها أو تحلُّ بساحتها.. وأمةٌ هذا شأنها تبقى عاجزة عن اتخاذ موقف موحَّدٍ يجمع شتات الآراء والأفكار التي يطرحها علماؤها ومفكروها.

وأمتنا الإسلامية ـ كما نعلم ـ واحدة من تلك الأمم التي ما تزال أوراقها مبعثرةً، ومواقفها متباينة مختلفةً أشدَّ الاختلاف.. الأمرالذي جعل أوراقها تختلط كثيراً في مواجهة الأزمات التي تفاجئها بين حينٍ وآخر.

وهذه الحالة المؤسفة التي تعيشها الأمة هي التي أتاحت لأعدائها البعيدين والقريبين أن يصنعوا فيها ما يشاءون، وأن يرسموا لها من الخطط ما يحققون به مصالح خاصةً بهم على حساب مصالح الأمة.. وبالرغم من أنّ هذه القضية أصبحت حقيقة واضحة من حقائق شخصية الأمة الإسلامية في هذا الزمن، إلا أنَّ أبناءها ما يزالون في تخبُّطهم ينتقلون في آرائهم

من النقيض إلى النقيض دون أن يكون لهم ضابط من شرع أو عرف يحول بينهم وبين الاضطراب.

حدث ما حدث في الكويت.. واجتاح جيش العراق ديار جيرانه، واستباحها قتلاً وسلباً واغتصاباً.. وهو أمر في موازين الأمم الواعية يستحق وقفة واحدة شجاعة لا غموض فيما تقرِّره ولا التواء، ولكن الذي حدث أنَّ أمتنا الإسلامية ـ كعادتها في العصور المتأخرة ـ قد انقسمت واختلفت مواقفها تجاه هذا الأمر الواضح، والذي يجعل أسفنا أكبر أن هناك بعض الجماعات الإسلامية قد رفعت صوتها بتأييد العراق، ووقفت معه محتجة بمعارضتها للتدخُّل الأجنبي في المنطقة، ورأينا أمتنا كيف تتعامل مع الأحداث الكبيرة بعقول صغيرة! وذلك ـ في نظري ـ أخطر من المأساة ذاتها التي زرعها جيش العراق في صدر أمتنا الإسلامية.

كنا نتمنَّى لو أن أمتنا ممثَّلة في ولاتها وعلمائها ومفكريها، اجتمعت على كلمة واحدة تدين اعتداء المعتدي، وترسم خطّاً مستقيماً لموضوع الاستعانة بغير المسلمين.. خطاً يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولكن هذا الاجتماع لم يحدث، إنما حدث الانقسام.. ولو أنَّ هذا الانقسام كان مبنياً على رؤية إسلامية واضحة للأمور لهان الخطب، ولكنه مبني ـ مع الأسف ـ على الانفعال، والمواقف الآنية القابلة للتبديل.

لا أدري كيف يجيز مسلم لنفسه أن يؤيد «حاكم العراق» فيما صنعه في الكويت ناسياً قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾، وما جرى في الكويت ظلم ظاهر لا شك فيه.

هل ينتقد هؤلاء المؤيدون لصدام تدخل القوى الأجنبية؟ إذن فهذه قضية أخرى وهي قضية مهمة تحتاج إلى أنْ تناقش برؤية إسلامية واضحة، ولكنها لا تبرِّر لأحدٍ كائناً من كان أن يؤيد أصحاب الظلم والاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض.

الأمر يحتاج إلى سعة أفق في تناول القضايا ومناقشتها.. صدام اعتدى وبغى وظلم، فنحن نقف بكلّ صراحة ووضوح ضدّ هذا الاعتداء والبغي والظلم، بذلك يأمرنا الإسلام وعليه يحثنا القرآن، بل إن قرآننا يأمرنا بمقاتلة الفئة الباغية إذا لم ترجع إلى الحق. وتدخل القوى الأجنبية له ـ أيضاً ـ سلبياته ومخاطره.. فنحن أيضاً نقف بكل صراحةٍ ووضوح ضدّ

الاسترسال في فتح الأبواب أمام هذا التدخل الأجنبي لغير المسلمين.

وكل قضية تناقش بما يتلاءم معها، مناقشة منبثقة من حكم الله الذي لا مبدِّل لحكمه.

الضرورة دعتنا إلى الاستعانة بالأجنبي.. الضرورة التي صنعها اعتداء العراق على الكويت.. وهذا أمر ناقشه علماء المسلمين وأفتوا بجوازه.. ومع ذلك فنحن مطالبون - إسلامياً - أن نعمل جاهدين للاستغناء - سريعاً - عن الأجنبي، بتكوين جيش إسلامي قوي، قادر على ردع هذا المعتدي المتطاول الذي هانت عنده دماء المسلمين وأعراضهم.

إذن.. التوازن مطلوب في مواجهة أزماتنا المعاصرة.. وهو ما لم يحدث عند كثير من المسلمين هذه الأيام.

لا أدري كيف يقبل مسلم صاحب وعي وبصيرة أن يؤيد صدَّام، وأن يرفع صوته بمناصرته وهو يعلم أنه بعيد عن الإسلام، كما لا أدري كيف يرضى مسلم صاحب وعي وبصيرة، أن يرى أمته في أزمتها الراهنة تضطر إلى الاستعانة بغير المسلمين ثم يبقى واقفاً سلبياً دون أن يعمل على تقديم نفسه جندياً صادقاً مدرباً ليحلَّ محل جندي أجنبي قدم إلى بلاده..؟

هكذا تظل الأمة في اضطرابها بسبب ركونها إلى الدنيا، وبعدها عن الاحتكام الكامل غير المنقوص إلى شرع الله.

وأحكام مثل هذه الأزمات والقضايا الشائكة موجودة في كتب تراثنا الفقهي، ناقشها العلماء المخلصون، وبيَّنوا فيها طريق الصواب.. وإننا ـ في هذه الأيام ـ بحاجة ماسة إلى الوضوح والصراحة، وإلى سعة الصدر مقابل هذاالوضوح، حتى لا نظلَّ على حالنا المضطرب الذي يسوء الصديق ويرضي العدو.

إن الله يمتحننا، فهل يمكن أن ننجح في هذا الامتحان الخطير؟ نعم بإمكاننا أن ننجح حينما نعيد الأمور إلى أصولها، ونفسرها تفسيراً شرعياً سليماً.

يقول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾. وأقول: يا أمتنا عودي إلى منهج الله الحق حتى لا تختلط الأوراق.

*****

حتى لا ينهار الجدار

١٤١١/٤/٩هـ

في الأزمات تختلط الأمور في أذهان الكثير، وتكثر الشائعات، وتضطرب بعض النفوس اضطراباً يُفقدها اتزانها وثباتها، وكثيراً ما تغيم الرؤية فترى عيون الناس أشباحاً في وضوح النَّهار، وتتحرك مواكب الأوهام وخفافيش الظلام.

هذا هو شأن الأزمات البشرية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.. وكثيراً ما تذهب هذه الأزمات باستقرار الناس وتقضي على هدوء حياتهم، وتفسح المجال للخلافات الحادَّة التي تستغلها بعض الأيادي الخفية والوجوه المقنَّعة، للوصول إلى الأهداف والمرامي.. وفي وهج الأزمات تتحرَّك طوابير الباطل والضلال لتذهب بالبقية الباقية في نفوس الناس من الصبر واليقين، حتى إذا تكشفت الأمور، وظهرت الشمس تبيَّنت للناس حقائق ما كان، ولكنْ بعد فوات الأوان.

يا ترى.. ما الذي يعصم الناس من هذا الاضطراب؟

ليس كالإيمان عاصماً.. إنه القوة الحقيقية التي تصدُّ كلَّ هذه الجحافل من الاضطراب واليأس والحيرة والاختلاف..

إن تاريخ البشرية يثبت ذلك، وتؤكده الوقائع والأحداث؛ في غزوة الأحزاب بلغت القلوب الحناجر، واضطربت النفوس، وتحرَّكت خفافيش النفاق تزيد من حدّة الاضطراب، وتوقد نار اليأس، وتبث الشكوك في نفوس الكثير...

ما الذي صدَّ ذلك كلّه؟ الإيمان بالله، الإيمان الراسخ القويّ الذي لا تزعزعه محاولات المرجفين.

في خضم الأزمة، يضرب الرسول ﷺ الصخرة، ويعد المسلمين بفتح فارس والروم، إيمان عميق لا تحركه العواصف عن موقعه القويّ قيد أنملة.

وبالمقابل تظهر حيرة المنافقين، ويبرز اضطرابهم الكبير، ويعبرون عنه بسؤالٍ يبدو لبعض الناس منطقياً واقعياً، ولكنه عند المؤمن سؤال انهزام واضطراب.

هذا محمد يعد أصحابه بخيرات فارس والروم، والمسلمون في أزمة الأحزاب لا يستطيع أحدهم أن يقضي حاجته من الرُّعب! شائعة عنيفة، وسؤال شيطاني رهيب.. له من واقع ما كان يجري نصيب وافر.

يا ترى ما الذي يقطع دابر مثل هذا السؤال؟

الإيمانُ بالله...

وقد كان.. وكان الجزاء من الله للمؤمنين أن أرسل الريح لتحسم الموقف، ولترد كيد الخائنين والمرجفين في نحورهم. وقس على ذلك كل الأزمات التي تمرُّ بها الأمم...

ومنها أزمة أمتنا الإسلامية هذه الأيام.

إرجاف، وتحليلات سياسية، وقصائد، ومقالات، وندوات واضطراب عظيم في نفوس كثير من الناس...

أزمة ضخمة خطيرة.. تحرَّكت فيها خفافيش الظلام، تبث الرعب، وتنشر القلق في نفوس المسلمين.

وبرزت الأسئلة كالسيل على ألسنة المساكين، متى ستكون الضربة العسكرية؟ ومتى سيحسم الموقف؟ ومتى سيقتل صدَّام؟ ومتى ستحرَّر الكويت؟.

وانهالت على الناس التقارير السرّية والعلنية، والمعلومات العسكرية الصحيحة والمزوَّرة، والناس لا يدرون إلى من يستمعون، ومن يصدِّقون.. وقليل منهم من يلجأ إلى ربه لجوءاً صادقاً بالقلب والجوارح، وليس باللسان فقط!.

وكثرت المقالات التي تبحث عن حلّ، فهذا كاتب يطرح طرحاً قومياً لحل الأزمة، وذاك يطرح طرحاً علمانياً، والآخر

طرحاً عقلانياً، وقليل جداً من يطرح الطرح الإسلامي.

ويبقى السؤال كبيراً.

ما المخرج من هذا الاضطراب؟

ويجيء الجواب سريعاً.. الإيمان بالله.. الإيمان هو المخرج، فالله هو مصرِّف الكون، والعودة إليه هي العودة إلى المحيط بكل شيء، أليس هو القائل في كتابه الكريم: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؟ إذنْ فالإيمان بالله هو المنقذ.

صحيح أن الأعداء يخططون ويعملون، وينسجون في الخفاء خيوط المؤامرات، ولكنْ بالرغم من ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

إن جدار الإيمان الثابت هو الذي يصد عنا طوفان الضلال والهزيمة.. وهو الجدير بالطرح عبر وسائل الإعلام.

ليس معنى ذلك أن نعزف عن معرفة خطوات الأعداء العسكرية ومُخططاتهم السياسية.. كلا.. ولكن معناه أن نجعل الإيمان بالله رائداً في كل تحليلٍ سياسي، أو تقرير إخباري، أو دراسة عسكرية.

والإيمان الراسخ لا يتأتى لمن خالط نفسه أدنى شعور بالشك في إيجابياته، وإنما يتحقق في نفس المؤمن بالله إيماناً لايخالطه ريب؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، إذن هو إيمان راسخ، لا يدنو من ساحته ريب أو شك.

وأنا من هذا المنبر الإعلامي الكبير أنادي أمتي.. أمة الإسلام.. أقول لها:

عليك بالإيمان الراسخ قبل أن ينهار الجدار، ونغدو أثراً من الآثار.

*****

الثبات على المنهج ... وراحة النفس

١٤١٠/٨/١٧هـ

إذا رسم الإنسان لنفسه طريقاً في الحياة، وظلَّ يسير فيه على هدىً وبصيرة، لا يتنازل عنه أو ينحرف، إلا بمقدار ما يتيح له المحافظة على استقامته، فإنه يرقى ـ في هذه الحالة ـ إلى المستوى الإسلامي الراقي في الثبات على المبدأ، والاستقامة على المنهج.

والإنسان الذي يصل إلى هذا المستوى من وضوح الرؤية، وعمق الإحساس بالمسؤولية، يريح نفسه أولاً من التذبذب والضياع، ومن الظلم والاعتداء على الآخرين، ويريح الناس من حوله ـ ثانياً ـ فلا يظلون من أمره على حيرة واضطراب، ولا يسيئون إليه إساءة لا يستحقها، أو يحسنون إليه إحساناً لا يستحقه.

وقضية «رسم المنهج» والثبات عليه، ذات صلة بوعي الإنسان ودرجة تفكيره ومستوى يقينه، ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة، بل إننا نصيب كبدها، حين نقول: إن المسلم العاقل الواعي أقدر الناس على تحقيق هذا الثبات على المنهج الواضح الذي رسمه القرآن الكريم وأكده رسول الله ﷺ.

ذلك لأن المسلم يحظى بما لم يحظ به غيره، من وجود منهج مستقيم واضح المعالم عميق الجذور، يتمثل في الدين الإسلامي الذي ارتضاه الله للبشر جميعاً.

فإذا استطاع المسلم أن يحطِّم أمامه حواجز الشبهة والشهوة والهوى، كان قادراً على الاستقامة التي تحقق راحة النفس، وتمنح صاحبها قدرةً على مواجهة عوامل الضغط الفكري والاجتماعي والنفسي، التي يحلو للأعداء أن يمارسوها ضد المسلم الملتزم.. ونحن هنا لا نتحدث من فراغ، كما أننا لا نأتي بجديد، ولكننا نُذكِّر القراء بهذه المزية الكبرى التي تتميز بها عقيدتنا، وهو أمر له في ديننا قواعده، وفي تاريخنا شواهده.

والإنسان الذي يرسم منهجه ويثبت عليه.. ينظر إلى الذين يحاولون صرفه عن هذا المنهج نظرة إشفاق ممزوجة بقدر لا بأس به من «السخرية» بمن يجهل معنى الثبات على المنهج في حياة المسلم المتجه إلى ربه في كل حالاته، صحته ومرضه، صوابه وخطئه، قوته وضعفه.

ولو رجعنا إلى بداية الدعوة الإسلامية لرأينا نماذج لهذه السخرية المهذَّبة من أعداء الحق.

المسلمون الذين استضعفوا في مكة، سمية، ياسر، عمار، بلال، صهيب، وغيرهم كثير، كانوا ينظرون إلى قريشٍ نظرة ساخرةٍ، ولسان حالهم يقول: افعلوا ما شئتم، فإنكم ستظلون عاجزين عن الوصول إلى الأعماق التي استقر فيها اليقين بالله، هكذا يكون ثبات المؤمن على منهجه، لا يقبل فيه دنية، ولا يرضى عنه انحرافاً.

والذي يتابع ما يجري في عالم اليوم، يرى نماذج من العدوان العسكري والسياسي والثقافي على المسلمين عامةً، تتراوح تلك النماذج بين القسوة الظاهرة، والقسوة المستترة، تلك في الإرهاب العسكري والسياسي، وهذه في الإرهاب الفكري والثقافي، الذي يمثل أنموذجاً من نماذج الظلم للآخرين.

والمسلمون في مواجهة العدوان أصناف.. فريق يتلاشى وينهزم، وفريق يقف في الوسط ينظر بعينٍ إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، كلما سمع صيحة طار إليها، والفريق الثالث ثابت صامد، يعرف موطئ قدميه، ويعلم علم اليقين أن صولات الباطل وأهله فقاعات تحدث دوياً، ولكنها سرعان ما تذهب هباءً منثوراً.

والفريق الثالث هذا، هو الذي يمتاز بالثبات على المنهج والسير في طريقه المستقيم، ربما يرى أهل الباطل يصلون إلى

بعض ما يهدفون إليه، ويحتلون مواقع مهمة في الساحة - أمامه، ولكنه يرى إلى جانب ذلك، عوامل الضعف تدب في أوصالهم، ويعلم أن جولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى قيام الساعة، وهذا الثبات هو الذي نطمح إلى أن يكون صفة لأمتنا في مواجهة العصر واتجاهاته المادية والفكرية والثقافية المنطلقة من رؤية مادية قاصرة، ترى الأشياء بظواهرها. وذلك الثبات هو الذي يحقق للأمة عمق النظر، وسعة الأفق في آن واحد، وهي بحاجة ماسة إلى ذلك العمق، وهذا الاتساع.

وقفة مع المسرح:

هل المسرح ضروري لحياة الناس بحيث لا يمكن أن يستغنوا عنه؟ مسألة فيها نظر.

فالذين يبحثون في مجال المسرح تاريخياً وفنياً وواقعياً، ويُلمون بمواقفه، ومراحل تطوُّره، وظروف نشأته، وينظرون إلى ذلك كله بموضوعية وأناة وروية، يرون أن المسرح قد يكون ضرورياً في مرحلة من المراحل لمجتمع من المجتمعات، ولكن الحاجة إليه ليست إلى هذه الدرجة التي يصوِّرها دعاته والمقتنعو ن به.

ويذهبون في مناقشة هذه الفكرة إلى ما هو أبعد، فيشيرون إلى نشأة المسرح عند الأمم القديمة، فراعنة، وإغريقاً، ورومانا وغيرهم، ويتحدثون عن علاقة المسرح بالدين عند هذه الأمم، وعلاقته بالتوجهات الدينية والفكرية والسياسية عند الأمم المتأخرة، وخاصة في هذا العصر، فيؤكدون أن العلاقة وطيدة بين المسرح والدين، ويتناولون هذه النقطة بالتفصيل فيقولون: الدين الذي توطدت علاقته بالمسرح أو علاقة المسرح به، دين محرَّف، بعيد عن التصوُّر الصحيح للدين الذي يأمر الله به عباده.

فالدين الذي نشأ في ظله المسرح، دين مشحون بالخرافات والأساطير والأوهام، دين تتعدد فيه الآلهة، وتكثر فيه مطامعها وصراعاتها مع بعضها، ومع بني الإنسان.. دين ينساق وراء الخيال والوهم، فترى من خلاله إلهاً للحب وإلهاً للجمال، وإلهاً للخير، وإلهاً للشر.. إلى غير ذلك من الآلهة التي قد يعجز الإنسان عن الإلمام بأعدادها وأصنافها.. بل وترى من خلال ذلك الدين المحرف آلهة عجيبة نصفها إله، ونصفها إنسان!..

هذا هو الدين الذي نشأ في ظله المسرح، وانتشرت به الأساطير والخرافات، ولذلك كان للكنيسة في أزمانٍ مختلفة

مواقف سلبية من المسرح، علماً بأن الدين النصراني الذي تعلمه الكنيسة وتدعو إليه مصاب بداء التشويه، بل إن فيه ما يتلاءم مع الأسطورة التي قام عليها المسرح وانبثق منها، وما التثليث، والأقانيم الثلاثة إلا دليل على ذلك.

ويذهب أولئك المناقشون لموضوع المسرح بأناةٍ وتدبُّر إلى ما هو أبعد فيقولون:

إذا كان المسرح القديم قد نقل إلينا الأساطير اليونانية، والفرعونية، وأساطير الأمم الأخرى، من رومان، وآشوريين وبابليين وغيرهم، فقرأنا عن الفرعون الموعود، وعن إيزيريس وأوزيس، وعن أوديب، فإن المسرح في العصور المتأخرة قد بُني على تلك القواعد واتكأ عليها، وإن كان قد خضع لأمور فنية جديدة دعا إليها تطور الفنون المختلفة في هذه العصور، وكان من تطور المسرح نزوله إلى واقع الحياة، ودخوله إلى قضايا المجتمع ومناقشتها مسرحياً، وكل مسرح يعالج القضايا من وجهة نظر تتفق مع المنطلقات الفكرية والثقافية لأصحابه والقائمين عليه.

ثم رأى هؤلاء أن واقع المسرح عالمياً وعربياً يؤكد خطورته على القيم والأخلاق، خطورة لها أثرها السلبي على المجتمعات الملتزمة، وعلى البناء الأسري في تلك المجتمعات.

إن التنظير هنا شيء، والواقع شيء آخر، فما كتبه نقاد المسرح عن أهميته، ودوره في نشر الوعي والثقافة شيء، وما يراه المتابع من انحراف المسرح، وخروجه عن جادة الطريق السليم شيء آخر. وهنالك فئة أخرى تدرس تاريخ المسرح، وتسميِّه «أبا الفنون» وتتحدَّث عن الجوانب الفنية فيه، وترصد مراحل تطوره دون أن تلتفت إلى الجانب الخلقي فيه.

ومن هذه الفئة من أحزنه أن يقال: إنه لا مسرح عند العرب، فغدا يبذل جهوداً كبيرة ليثبت وجود المسرح عند العرب، ويتحدث عن مجالس لهوهم في الجاهلية، وعن انتشار بعض الأساطير عندهم، وقد صنع ذلك د.محمد يوسف نجم في كتابه عن المسرح العربي، الكتاب الذي عدَّه بعض النقاد من أهم الكتب في هذا المجال، وإن كان لجلال العشري فيه رأي آخر.

وأخذت هذه الفئة على عاتقها مهمة الدعوة إلى المسرح والتأكيد على أهميته في المجتمع.

وأقول: بعد أن يعرف الإنسان المسلم هذين الاتجاهين ماذا يصنع؟

هل يدعو إلى إيجاد مسرح في مجتمعه، متأثراً بمن قال

بضرورة وجوده؟

أم يدعو إلى إقفال هذا الباب متأثراً بمن قال بخطورة وجود المسرح؟

أرى أن أفضل كلمة قيلت في هذا الأمر ما قاله الدكتور «يوسف عز الدين» الذي كان أستاذاً بجامعة الملك سعود وصار الآن أستاذاً بكلية التربية بالطائف، حيث قال في لقاء أدبي حول المسرح في نادي الرياض الأدبي عام ١٤٠٥هـ:

«لا يعيب المملكة العربية السعودية أن يقول الناس عنها إنها خالية من المسرح، بل إن ذلك ميزة لها». فهل لنا أن نفكر في هذا القول ملياً، ونناقشه بهدوء؟ أرجو ذلك.

رسالة:

تقول لقد كثر الحاقدون ... وقد عكَّر الحاسد الموردا
وأصبح سهلُك نجداً فقلتُ ... لأني تعوَّدت أن أصعدا
ألائمتي ذاك أمر عظيمٌ ... إذا بلغ المرءُ أن يُحْسَدَا

*****

وقفة مع الجهاد الأفغاني

١٤٠٨/٦/١٣هـ

كلَّما سيَّر الشتاء مراكبه.. وبثَّ جنوده برداً قارساً، وجليداً قاسياً، وعواصف ثلجية مدمِّرة.. تحرَّكتْ آمال العدوِّ الغاشم في أفغانستان، فغدا يبثُّ جنوده.. ويزيد من عدد قوَّاته.. الطائرات والمدافع.. والصواريخ ووسائل الدمار المختلفة، ظاناً أن ذلك ـ مع برد الشتاء وعواصف الثلوج ـ سيكون سبباً في تخاذل المجاهدين الأفغان، وعاملاً من عوامل انهزامهم.

ولكنَّ الاتحاد السوفيتي يصاب دائماً بخيبة آماله.. ويُلقي بقوَّاته إلى التهلكة مصرّاً على عدوانه.

والذي يؤسف له.. أن وسائل الإعلام في عالمنا الإسلامي تقصرٌ كثيراً في متابعة حركات المجاهدين.. بل وتقع ـ غالباً ـ ضحية التفسيرات والتأويلات التي تنشرها وسائل الإعلام الغربية والشرقية، وهذا خلل كبير لا أدري متى نستطيع إصلاحه في عربة الإعلام الإسلامي المعاصر.

إنَّ القوى الكبرى تتكالب علينا.. وتقف ضدّ مصالح أمتنا، هذا أمر لا يختلف فيه أحد ممن يعرف ما يجري حوله.. ولكن

الأساليب تختلف، فمن أعدائنا من يقتلنا وهو يبتسم لنا «بسمة الخداع»، ومنهم من يقتلنا وفي وجهه تجهُّم.. تبرز من خلاله عداوة راسخة لا يمكن إخفاؤها ببسمة خادعة.. عفواً - قارئي العزيز - فأنا أكتب.. وأمام قلمي شواهد كثيرة، لا يدري ماذا يأخذ منها وما يدع..

فها نحن نرى أطفال فلسطين ليس لديهم إلاَّ الحجارة يواجهون بها ظلم عدوِّهم، ومع ذلك فإن القوى الكبرى لم تتحرك لإنصاف المظلوم ولا لصدِّ الظالم، وكيف تفعل ذلك وهي مع الظالم ضد المظلوم!

ثم ها نحن نرى ونسمع منذ أسابيع ما يقال وينشر عن الجهاد الأفغاني.. فنعجب لما نرى في وسائل الإعلام الإسلامي من عدم تحقيق كثير من الأخبار التي تنقل.. فرأنا في الصحف ما أشيع من أن أمريكا قد بعثت بصواريخ «ستنجر» إلى المجاهدين الأفغان، وصدَّق الناس أو بعض الناس هذه المقولة دون معرفة حقيقة الأمر .. بينما يعلم من يراقب الجهاد، أو يعيش مع المجاهدين أن ذلك محض افتراء، فالمجاهدون الأفغان يؤكدون دائماً أنهم لا يرضون إلا بالله نصيراً مهما تطاول المعتدون.

وحَدَث ـ أيها القارئ الكريم ـ حصار قبل أسابيع.. حيث حاصر المجاهدون الأفغان قاعدة جوية سوفيتية مهمة تقع بالقرب من مدينة «خوست»، الواقعة طرف ولاية «باكتيا» من جهة «بيشاور»، وكانت هذه القاعدة تضم قوَّة سوفيتية كبيرة، وعندما تم الاجتماع بين قُطبي القوى الكبرى في العالم كان من أهمِّ نتائج هذا الاجتماع أن تحركت قوة سوفيتية كبيرة من كابل متجهة صوب «القاعدة الجوية» التي يحاصرها المجاهدون.. تلك القوة كان قوامها ألف دبابة.. كل دبابة لا يقل أفرادها عن عشرة، ما بين قائد، ومساعد له .. ورامٍ، وغيرهم، أي أن قوام الحملة عشرة آلاف جندي أو يزيدون.. وقد شارك في هذه القوة الغاشمة شيوعيون من كل البلاد الشيوعية تقريباً؛ لأن هذه المعركة مهمة بالنسبة إلى رفع الناحية المعنوية عند الجنود السوفيت..

ولكن ما حدث كان شيئاً مذهلاً.. حيث دمر المجاهدون القوة الداخلية التي كانوا يحاصرونها.. ثم انسحبوا انسحاباً عسكرياً منظماً في مناورة رائعة، لاستيعاب تلك الحملة القادمة من كابل في صورة ألف دبابة وعشرة آلاف جندي تغطيها الطائرات، وكانت النتيجة لهذا كله معروفة سلفاً.. فهي مناورة أراد بها الاتحاد السوفياتي إسكات تلك الأصوات

التي تعالت من داخله، تتساءل إلى متى تبقى القاعدة الجوية في «خوست» محاصرة من قِبَل المجاهدين؟ وإلى متى يظل الاتحاد السوفياتي عاجزاً عن إنقاذ جنوده المحاصرين داخلها؟.

وتقدم العدو لإسكات تلك الأصوات، ولكنه تقدم الجاهل الذي أدَّى إلى تدمير القاعدة الداخلية.. فكانت حملته خاسرة قبل أن تبدأ.

هذا ما جرى، ومثله يجري.. ولكن بعض الصحفيين المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي يشيرون إلى انسحاب المجاهدين وكأنه هزيمة، وهم ـ أساساً ـ يجهلون مواقع الجهاد وطرقه.. ويجهلون أساليب المجاهدين الذين يُعد صمودهم أمام القوَّة العاتية تسع سنواتٍ كرامة من الله نسأل الله أن يتوجها بالنصر القريب.

كفانا يا أبناء الإسلام.. تخاذلاً.. ونكوصاً.. وضعفاً وجهلاً بحقيقة أوضاعنا.

إنني أرى أن كل صحفي مسلم.. مسؤول عن الجهاد الأفغاني، كما هو مسؤول عما يجري لإخواننا في فلسطين ولبنان والخليج، وهذه المسؤولية تجعل من أقل واجباته أن

يزور مـواطن الجـهـاد ليكتب عن علم، ولكي يطّلع على مـا يجري.. حتى لا يُخدع بما تهربه إليه وكالات الأنباء الأجنبية من أخبار ملفقة مكذوبة.. أو أخبار صحيحة ولكنها مفسرة بطرق تشوِّه حقائقها.

عفواً ـ قارئي العزيز ـ، فإن الإنسان المسلم يصاب بالألم الذي يشتعل في أعماقه عندما يقرأ مقالة لكاتب مسلم في بلد مسلم يحاول صاحبها أن يحتكم إلى ما يسمونه بـ «العقلانية»، مكذِّباً بذلك ما يجريه الله تعالى للمجاهدين من كرامات ينقذهم بها من براثن العدوِّ، وكأن العقل البشري قادر على استيعاب كل الغيبيّات التي هي في علم الله تعالى.. وينسى هذا الكاتب أو يتناسى ما جرى، بل وينسى أن هنالك أموراً يعجز عن إدراك كنهها البشر.. وقد ضرب الله لنا مثلاً بقصة الخضر مع موسى.. حيث رأينا كيف يتوقف العقل البشري أمام كثير من مظاهر الحياة.. فلا يستطيع إدراك أسبابها ونتائجها؛ لأن ذلك مما يجري في علم الله تعالى.

وأنا أقول لذلك «العقلاني»:

إذا كنت تحتكم إلى العقل فقط، فهل من المعقول أن يصمد جيش شبه أعزل أمام قوَّة عالمية كبرى، لها وسائلها

المدمِّرة مدَّة تسع سنوات، يحقق فيها ذلك الجيش المجاهد انتصارات عظيمة؟

عقلك ومنطقك البشري يقول: لا يمكن.. لأنه عقل يؤمن بالمحسوس فقط.. ولكن قدرة الله وتدبيره يقولان لنا: إن ذلك ممكن.. وقد حدث في أفغانستان.

عفواً ـ قارئي العزيز ـ..

فإن مصيبتنا نحن المسلمين اليوم أن أكثرنا مهزوم من الداخل، وهذه شر هزيمة تصاب بها أمة.. الهزيمة الداخلية هي التي تجلب على صاحبها الوبال والدَّمار.

في غزوة الخندق.. عندما بلغت القلوب الحناجر، وتجمع الأعداء على المسلمين من كل مكان.. لم يكن في قلوب المسلمين إلا العزة واليقين بنصر الله، حتى إنهم طربوا وفرحوا بما بشرهم به الرسول ﷺ من أنهم سيفتحون بلاد فارس والروم واليمن.

أين العقلانية من هذا؟ العقلانية تقول إنَّ هذا غير وارد؛ فإن حالة المسلمين في الخندق تدل على سيطرة الأعداء عليهم، ورجحان كفة قريش وحلفائها، ولكنَّ اليقين بنصر الله وعدم الانهزام الداخلي كانا يقولان: بل سوف ننتصر اليوم

بنصر الله، وسوف يحقق الله لنا وعد رسوله بفتح فارس والروم واليمن.

وجاء ما يخالف «العقلانية»، حيث هبَّت الرياح التي أرسلها الله فقضت على تلك القوة الغاشمة.

قف أيها العقل البشري القاصر عند محسوساتك وطاقاتك، أما ما يتجاوز ذلك فيجب أن يندرج تحت دائرة الإيمان بالله تعالى، الذي يقدِّر مالا يكون لنا في الحسبان.

هكذا يجب أن يكون الكاتب المسلم والصحفي المسلم.. مستوعباً لكل ما يجري حوله.. واعياً ما يدبَّر لأمته من وسائل التدمير الفكري والعسكري والسياسي والاجتماعي.

نحن اليوم بأمس الحاجة إلى فهم الأمور فهماً إسلامياً نزيهاً، بعيداً عن كل التأثيرات الوافدة والمغرضة.

وأقول: إن إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وفي فلسطين، وغيرهما من بلاد المسلمين بحاجة إلى دعمنا المادي والمعنوي، وبحاجة إلى وعينا بحقيقة ما يجري لهم.. فإذا كنَّا كذلك كان لنا ـ بإذن الله ـ من أجر الجهاد نصيب كبير.

وقفة شعرية:

طفل أفغاني يسأل أباه:

نُســـبى ونطرد يا أبي ونُبـــادُ
فـــإلى مـــتى يتطاول الأوغـــادُ؟
وإلى مـــتى تدمي الجـــراح قلوبنا
وإلى مـــتى تتـــقـــرح الأكـــبـــادُ؟
نصحو على عزف الرصاص، كأننا
زرع، وغـــارات العـــدوِّ حـــصـــادُ!
ونبـــيت يجلدنا الشـــتـــاء بســـوطه
جلداً، فـمـا يغـشى العـيـونَ رُقـاد
يتـســـامـــر الأعـــداء في أوطاننا
ونصـــيـــبنا التـــشـــريد والإبعـــادُ
وتفـــرِّخ الأمـــراض في أجـــسـادنا
أوَّاه مما تحـــمل الأجـــســـادُ..

*****

الدُّمى تحصد الدُّمَى

١٤٠٦/٥/٢٤هـ

عندماترى صورة فجر على لوحةٍ رسمها مِفَنٌّ، فإنك لا تسميها فجراً ولكنك تسميها صورة الفجر... الفرق بين الفجرين أنَّ الفجر الحقيقي يتحدث بلغة النور، فتفهم بقاع الأرض ما يقول، ويفهم الناس ما يقول.. وهو يتنفَّس بأنفاسٍ من الضياء، فترى فيه دبيب الحياة وحركة الوجود... وهويبتسم فتصبح الآفاق ببسمته معنىً رائعاً من معاني الأمل المشرق الذي يشيع في نفوس البشر.

أما فجر الصورة أو صورة الفجر، فإنه يحمل من معاني الفجر شكله ومظهره.. ولكنه يظلُّ في حقيقته لغةً ميتةً تتحدَّث بها الألوان على لوحٍ من الخشب، أو الورق، أو الزجاج، وبين الفجرين ـ كما ترى ـ فرق كبير كبير، يجعل لقاءهما على معنىً من معاني الحياة والحركة مستحيلاً، بل إنهما يلتقيان وفي أحدهما حركة الحياة، وفي الآخر سكون الموت.

وعندما ترى دُمية جميلةً على فراش طفلة مرفّهة، فإنك لا تسمِّيها إنساناً وإن أخذت شكل الإنسان.. ولا يمكن لك أن تطلق عليها اسم الإنسانية؛ لأنها جامدةٌ لا تتحرك.. والإنسان

متحركٌ لا يتحقق له الجمود إلا عندما يموت، وهو جمود مؤقَّت، يتيح للناس من حوله أن يضعوه بين جنبي القبر، ويهيلوا عليه التراب.

الفرق بين الدمية والإنسان كالفرق بين الحياة والموت... الإنسان كيان عظيم دائم الحركة وفي جسده من عوامل الحياة ـ كالقلب والدماغ والخلايا ـ ما يجعل الحركة وظيفة صغرى من بين وظائفه الكبرى.. أما الدمية.. فإنها شكلٌ من الأشكال أخذ صورة الإنسان في مظهره، فلا هي جديرة بالحياة ولا هي قادرة على الحركة.. وبين الدُّمية والإنسان سَلْبٌ وإيجاب.. فالدُّمى لا يمكن أن تحمل صفات الإنسان المتعلقة بالإحساس والحياة والحركة.. والإنسان قد يحمل صفات الدُّمية فيصير دميةً متحركة فيها حياة، ولكنه نوع من الحياة جدير بأن يزهد فيه الإنسان العاقل الحصيف.

وهنا نتساءل ـ متى يصبح الإنسان دُمَيَةً؟

سؤالٌ وأيُّ سؤال... ليس الجواب بعيداً ولا صعباً ولا مستعصياً.. فالإنسان يغدو كالدُّمية في كثير من حالاته.. عندما يفقد الشعور بالرحمة والعطف، عندما يفقد الشعور بحرمة الحرام، وخطورة الانحراف، عندما ينساق في طريق الظلم والضياع والظلام، عندما تلامس مسامعه كلمات الحق

فلا يستجيب لها، ثم يهتزُّ لكلمة باطل تراود سمعه، عندما يفقد كرامته فلا يسخط ولا يغضب، ثم يغضب لفقدان درهمٍ أو دينار.. عندما يستجيب لكل ناعق وفاسق.. ويتذمَّر من نداء الله فلا يستجيب، عندما يبيع نفسه لشهوته وشيطانه وعدوِّه.. فإذا به لا يملك من نفسه إلا حركاته الظاهرة المحسوسة، أما قلبه وعقله فهما في يد غيره... وفي هذه الحالة يستحق الإنسان لقب الدُّمية بجدارة!. ومن هنا تكثر الدُّمى في عالم البشر.

وحتى يكون الأمر أكثر وضوحاً في أذهاننا أقول:

تأمل معي عالم اليوم.. وارحل معي على متن الخيال إلى كل بقاع الدنيا... ثم تأمل صفات الدُّمية في كثير من البشر الذين تراهم.. فسترى أنك في عالم الدُّمى، الذي يسمونه عالم البشر.

كم من إنسان في هذا الزمن ينساق وراء الباطل، والباطل يدفع به إلى حيث يريد، تماماً.. كما تفعل الطفلة عندما تدفع بدميتها حيث تريد... مع الفارق الكبير بين من يدفع الدمية هنا ومن يدفعها هناك... كم من أخٍ يجني على أخيه.. وابن يعتدي على أبيه، كم من رئيس يمتص دم مرؤوسه ويغسل قدمه بعرقه.. ثم لا يرى في ذلك المسكين إلا آلةً أو ما يشبه

الآلة مسخرة لخدمته، كم من قويٍّ يعتدي على الضعيف وقد خضع لسلطان غروره وجبروته.. فصار في يد ذلك المغرور دميةً ليس لها من الأمر إلا أنْ تظلم وتعتدي، وهي تفعل ذلك بغير إرادتها من حيث تشعر أنها تفعله بإرادتها.

الدُّمى تسحق الدُّمى والمواثيقُ مُبْرَمَةْ

كم من إنسان لو قلت له: إنك دمية يغضب ويثور، ولكنه في حقيقته دمية تسيِّرها الشهوة حيث تريد.. ألم أقل لك: إنك لو تأمَّلت حال الدنيا اليوم لوجدت أنك تسير منها في عالم من الدُّمى، من حيث تحسب أنك تسير في عالم من البشر.

ونتساءل: كيف يستطيع الإنسان الدُّمية أن يعود إنساناً حقيقياً..؟ سؤال جوابه أقرب إلى ذهن السائل منه.

فإن ارتفاع الإنسان عن جمود العواطف وموت الأحاسيس، وإن تعلُّقه بخالقه ولجوءه إليه هو الطريق الحقيقي الذي يمكن أن يعبره الإنسان ليصل إلى إنسانيته.

وكلما ابتعد الإنسان عن هذا الطريق ابتعد عن ساحة الإنسانية، واقترب من حظيرة «الدُّمى» وإذا صار الإنسان دميةً فاقرأ عليه السلام!..

على نفسها جنت براقش:

جاء إلى (ربعه) يصيح وشكا إليهم حاله.. وحاله تستحق الشكوى.. فله ابن وحيد من أجله ـ كما يقول ـ تعب وشقي حتى جمع المال فصار في حوزته كالجبال.. ومضت به السنوات وهو يسعى إلى جمع ماله، ويخوض في سبيل ذلك كل محيطات الأعمال التجارية إقامةً وسفراً.. ومضت عليه سنوات، وبعد أن أجبرته معركة الحياة الاقتصادية على الوقوف.. التفت إلى بيته وأخذ يتأمل وجوه زوجته وبناته وكأنه لا يعرفهن مع أنه يراهن.. ثم حاول أن يقرأ وجه ولده الوحيد، ولكنّ أنَّى له ذلك وولده لا يكاد يدخل البيت حتى يخرج منه، فهو يدخل البيت مساءً لينام، وظهراً ليتغدَّى، وربما جاء إلى البيت في بعض الأوقات ليبدِّل ملابسه ثم يعود من حيث أتى.. وسكت الرجل وأصحابه ينظرون إليه بعطفٍ وإشفاق، ويحاولون أن يسلُّوه، وكيف يستطيع السلوان؟..

وسأله أحدهم سؤالاً عميقاً: كنت كما نعرفك كثير الأسفار قليل الاهتمام بشؤون منزلك.. لقد تركت بيتك للسائق والخادمة ولجهاز الفيديو الذي كنت تتفنَّن في اختيار الأشرطة التي تقدمها هدية إلى أهلك.. لا تراعي في ذلك أدباً ضالبت به ولدك، ولا حياءً طالبت به بناتك، وكنا قد

نصحناك ولكنك أبيتَ، فها أنت تجني ثمرة ما زرعت.. وبكى الرجل.. وكان بكؤه حاراً.. ثم قام من مجلسه وصوت صاحبه يملأ مسامعه «على نفسها جنت براقش» فمن الذي يتعظ؟..

من شعري:

تطوف الهموم بقلبي طوافا ... تجيء إليه ثقالاً خفافا
وأركب ظهر جوادٍ أصيلٍ ... فألقى أمامي خيولاً عجافا
فأعجب، كيف تسير أمامي ... وما تحسن الكرَّ والإنعطافا
وذلك شأن الحياةِ، فهذا ... يُريك وفاءً، وهذا تجافى

*****

عندما يغرِّد طائر الأمل

١٤٠٨/١١/١٨هـ

صفاء الحياة ونقاؤها والشعور بالسعادة فيها مرهونٌ بالأمل الذي يُضيء جنبات النفوس المؤمنة بالله تعالى. ولا يكون الأمل عظيماً ورائعاً إلاَّ عندما يكون الإيمانُ قوياً راسخاً، شأنه في ذلك شأن الزهرة.. لا تكون جميلة ندِيَّة العود إلا عندما تحظى بتربة صالحة، وسقي متتابع، يطرد عنها شبح الجفاف.

والإيمان يسعد قلب الإنسان بالأمل حتى في أحلك المواقف وأشدها سواداً. وذلك لأن النفس البشرية إذا كانت مضيئة من الداخل، استطاعت أن تنشر ذلك الضياء في الوجود كله، مهما كان ليل الوجود بهيماً، أوَ ما رأيت إلى رسول الله ﷺ وأصحابه عندما كانوا في «شعب أبي طالب» محتجزين كيف كان الإيمان بالله يشعل لهم قناديل الأمل، وكيف كانت تلك الحشرة الصغيرة تأكل بيان قريش الظالم، فإذا بالظلام الدامس يتحوَّل إلى نهارٍ مشمس جميل؟

لو لم تكن نفوس القوم مشرقة من الداخل بنور الإيمان لما

كان ثباتهم كما كان، لما حصل لهم فرج الله الذي حصل. بل تعال معي في نقلةٍ أخرى، وقِفْ معي على هذه الرابية، ومدَّ بصرك إلى حيث مددت بصري لترى معي رجلين يجلسان في غار ثور مختبئين عن المشركين، وخيول قريش تجوب المكان وتشرِّق فيه وتغرِّب؛ طمعاً في العثور على هذين الرجلين الكريمين.. ثم أنصت معي قليلاً لتسمع في هذا الموقف المظلم تلك الكلمة التي أشرق بها وجه الكون «ما بالك باثنين الله ثالثهما»؟! لولا الإيمان في قلب الرسول ﷺ لما أضاء بهذه الكلمة قنديل الأمل في نفس صاحبه أبي بكر.

بل، ماذا دهاني حتى أنسى أن الأمل طائر مغرِّد كما أنه قنديل مضيء. ما من نفس تتمو فيها شجرة الإيمان إلا وعلى غصنٍ من أغصانها طائر أملٍ ينشد ألحان السعادة.

وطائر الأمل حرٌّ في تغريده، لا يلتفت إلى مالٍ، ولا إلى جاهٍ، ولا إلى قوَّة مادية مهما عظمت.. فهو يغرِّد وينشد أناشيد الصفاء بدافعٍ حقيقي من قوَّةٍ معنوية يفجرها في النفس الإيمانُ بالله العظيم، الذي يصغر أمام عظمته كل عظيم.

تعال معي ـ أيها القارئ الكريم ـ إلى هذا الموقف:

كان غنيًّاً كثير المال، من أقرب علامات غناه تلك الرابية الكبيرة التي تكتنفها الخضرة من جهاتها الأربع، ويرقص ماء النهر أمام جهتها الشمالية، لا يكلّ ولا يملّ، كانت الرابية وحيدة عصرها جمالاً وخضرةً وثماراً شهية، وعلى قمتها قصر ذلك الغني، بناه وتفنَّن في بنائه حتى لم يدع زخرفةً إلا وزيَّن بها جدرانه، ولم يدع تحفةً شهيرةً إلا جلبها إليه.

وإياك أن يبهر عينيك جمال القصر، فتنسى أن تركِّز نظرك على شرفةٍ من شرفاته العالية، حيث ترى رجلاً بدا على وجهه التعب، وقد أرسل عينيه الدامعتين إلى ناحيةٍ من نواحي الرابية، فلم يسمح لأجفانه أن تفارق ذلك المكان، وحوِّلْ عينيك إلى حيث ينظر الرجل لترى فلاحاً قد حزم وسطه بحبلٍ، وجلس إلى قدرٍ فيه طعام وأمامه زوجته تفتُّ له الخبز في الإدام، وقد علت ضحكاتهما وبدت السعادة في وجهيهما، ثم اعجب لذلك الرجل المطلّ من شرفة ذلك القصر كيف ينظر إلى هذين دامعَ العين؟!

ولا تدع العجب يذهب بك بعيداً، بل توجَّه دون خوف إلى ذلك الرجل وسلِّم عليه، واطلب أن يأذن لك بحديثه.

ماذا قال لك..؟

قال: إنه يبكي لأنَّ أمواله وثروتَه الطائلة ـ وهو صاحب القصر ـ لم تستطع أن تجلب له ضحكة عميقة الصفاء، ولا جلسةً سعيدةً، كضحكة ذلك الفلاَّح وجلسته تحت ظل الشجرة مع زوجته، وإياك أن تجلس دون أن تذهب إلى الفلاَّح لتحدثه...

فماذا قال لك..؟

قال: أنا سعيدٌ بالقناعة، سعيدٌ بطائر الأمل الذي يغرِّد في داخلي، وبقنديله الذي يضيء جنبات نفسي.

ثم اترك لنفسك أن تتأمل الحياة، فسوف تعلم حينها أنَّ طائر الأمل لا يغرد إلا فوق أغصان شجرة الإيمان النابتة في نفس مطمئنة صادقة اليقين.

قارئي الكريم...

عندما يغرِّد طائر الأمل.. تشرق الحياة، وتصغر الأحداث مهما كانت كبيرة... وتتضاءل الأخطار مهما كانت عظيمة، ويستطيع الإنسان أن يعطي عطاءً صافياً، وأن يقدم على حياته إقدام من يشعر بلذة العطاء.

ويخطئ كثير من الناس عندما يظنون أن إشراق الأمل مرهون بمظاهر الحياة الدنيا.. يخطئون بذلك خطأ كبيراً،

ويعيشون بهذا في وهم لا ينجيهم منه إلا الارتطام القوي بصخرة الواقع حيث يتنبهون عند ذلك، وقد يكون هذا التنبُّه بعد فوات الأوان.

والأمل ضرورة ملحة في حياة الأمم والأفراد، إذْ إنه يفتح نوافذ الحياة، ويقطع دابر اليأس والقنوط.

وهنا أقف لأقول:

إن أمتنا الإسلامية بأمس الحاجة في هذا المحيط الهائج من الأحداث أن تكون أكثر أملاً، ولن تكون كذلك إلا إذا كان إيمانها باللة راسخاً، ويقينها به قوياً صادقاً.

الإيمان هو الذي سيجلب طائر الأمل.. وطائر الأمل عندما يغرِّد يجلب بتغريده السعادة.. ويدفع مركبة المجد والعز إلى الأمام.

في معركة بدر الكبرى.. كان طائر الأمل يغرِّد؛ لأن شجرة الإيمان كانت راسخة في تربة النفوس، وكذلك في غزوة حنين التي ثبتت فيها نفوس مؤمنة، لم يسكت طائر الأمل فيها عن التغريد.

وفي عصرنا هذا غرَّد طائر الأمل في نفوس إخوةٍ لنا في أفغانستان، ولا يزال يطرب الكون بتغريده الجميل، كما غرَّد

في نفوس أطفال فلسطين فجعل من حجارتهم ناراً تتلظى على المعتدين.

هكذا يجب أن يكون الأمل في حياة الأمة مشرقاً إشراقة شمس في يوم ربيعي جميل.

أمتنا الإسلامية مطالبة بغرس شجرة الإيمان في القلوب؛ لتسمع تغريد طائر الأمل، بعيداً عن محاولات التيئيس والإحباط التي يحاول أعداء الأمة أن يقتلوا بها طيور الأمل المغردة في حياتنا.

وقفة:

تحدثت مرَّة عن الأمل وإشراقه.. وعن عدم اليأس، فبادرني أحد الحاضرين قائلا: تدعو إلى إشراقة الأمل، وأنت قد وقفت شِعرك على تصوير مواجع الأمة، فقلت:

عندما يقول الأخ لأخيه: جرحك عميق لابد من الذهاب إلى الطبيب، حتى يكتب لك الله الشفاء على يده، فهل معنى ذلك أن الأخ قد قتل الأمل في نفس أخيه؟

كلاَّ.. إن تجسيد الداء خطوة أولى مهمة في علاجه.. والإنسان المخلص لأمته، لا يملك إلا أن ينفعل لأحداثها وآلامها.. ويجسدها.. ويتحسس مع أمته طريق النجاة منها.

ثم إن تصوري للمواجع في شعري مقرونٌ بتصوري للأمل المشرق.

عـفـواً بني قـومـي فـإنَّ قـصـائدي
جـســـرٌ إلـى أملٍ قـــريبٍ منتظَرْ
أدعـــو إلـى الإيمان دعـــوة شـــاعـــرٍ
شـرب الأسى من أجلكم وبه انصَـهـرْ

وأخيـــراً..

غرِّد يا طائر الأمل فإنَّ تغريدك يطربنا.

*****

obeikandl.com

حروف من نور

١٤٠٦/١٠/٢٩هـ

قفي من قمم الحب حيث تشائين.. وخذي من قلبي المساحة التي تريدين، وانظري إلى الآفاق البعيدة التي تبرز منها ملامح الأمل المشرق بل.. وطيري إلى تلك الآفاق ففيها سترين عشاً لا يتسع إلا لعصفورةٍ واحدة.. أنت تلك العصفورة.. وقلبي ذلك العش.

هو ذاك.. أوما ترين السماء في اتساعها وعظمتها.. ومع ذلك، فإنَّ شمساً واحدة هي التي تجري فيها.. وقمراً واحداً هو الذي يطل عليها.

لا تتحركي إلى الأمام.. خطواتك محسوبة وطريقك طويل طويل.. وأنا منك مرمى سهمٍ أو أقرب.. وأعجب كل العجب كيف لا ترين من يقف أمامك وأنت ترين ذرَّات الأمل في سماء الحب التي لا حدود لها.. انظري إلى وجهي.. اقرئي فيه حكاية الشوق التي بدأت ولم تنته عيناك تذرفان.. عيناك وأنت تنظرين إلى ما وراء الأفق.. وعيني وأنا أنظر إليك، أراك كأنني أراك من وراء زجاجة من امتلاء عيني بدموعها..

فكأني في ذلك أقف منك حيث وقف الشاعر العربي القديم من عصفورته.. والدموع تترقرق في عينيه.

نظرتُ كأني من خلال زجاجة
إلى الدار من فَرط الصبابة أنظرُ

أرأيت إلى هذه الصورة الشعرية البديعة، يرسمها شاعر عربي قديم.. أين الغارقون في تهويمات المخدوعين من شعراء هذا العصر ليقرؤوا هذه الصورة الشعرية؟

يا أنتِ.. لا تسألي عن متاعب الطريق.. ووعورة المسالك.. ولكنْ اسألي عن الراحة التي تنتظر المسافر المتعب.. واقرئي وأنت سائرة قول القائل «فإنَّ طريق الراحة التعبُ».

هُوَ ذاك...

أما رأيت المجاهد الصادق في سبيل الله، يقارع الأعداء ويجالدهم، ويتلقى ضربات السيوف الهندوانية.. ووخزات الرِّماح.. ثم هو بعد ذلك يصل إلى منزلة عليا، حيث تنسيه الراحة ذلك التعب، ويبقى عند ربه حياً يُرزَق.. إنها الشهادة في سبيل الله.. وما أرقاها من منزلة، وما أعظمها من مكانة.

سألتُ زوجة أحد العلماء زوجها: متى تريح نفسك من هذا العناء؟ فأجابها والابتسامة تشيع في وجهه فتجعله روضةً

مملوءة بأزاهير السعادة، قال لها: «عن الراحة يازوجتي أبحث»!..

هنا تصغر أمامنا متاعب الطريق.. وتكبر في أعيننا معاناتُنا فيها.. الراحة تُولد من رحم التعب.. لا ينكرهذا إلا جاهل بمعنى الراحة.. يا أنت.. زفرات قلبي تحدِّثك بما فيه.. أما تفهمين لغة الزفرات؟ ألحان شعري تخرج إليك من داخل النفس.. تنقل إليك نبضات القلب.. أما تدركين معنى هذه الألحان؟.

قفي مكانك وتلفَّتي يمنةً ويسرةً.. فلن تري إلا وفوداً من البشر أتعبها السعي في مناكب الحياة.. ولوَّحت وجوهها شمس الصحراء المحرقة، وهي لا تزال في سعيها الحثيث إلى أن تعلن الحياة توقُّفَها في عروقهم، وعندها يتوقفون وهم يلهثون.

ولكنْ تأمَّلي وجهاً واحداً من بين تلك الوجوه، فستدركين أنه يتوجَّه إلى الله تعالى في دعاءٍ صادقٍ بأن تتضاءل بينك وبينه المسافات وأن تتحطَّم الحواجز.. أما ترين ذلك الوجه؟ إذاً فأنت في غيبوبةٍ من الغفلة لا حدود لها.

يا أنتِ.. يا راكبةً متن الوقوف.. فلم تبرحي مكانك.. وأنَّى

يبرح مكانه من جعل الوقوف مطيّته؟ أما ترين خيول الأمل تجري من حولك تسابق الريح؟ أما ترين مراكب الشوق تحمل المشتاقين إلى حدائق الأشواق؟.. هناك حيث خرير المياه.. وعبق الزهور.. وتغريد العصافير.. وحفيف الأشجار.. هناك حيث الخضرة والجمال.. فما بالك تصرين على هذا الحصان الأعمى الذي تجري من حوله الدنيا، وهو واقف ليس به حراك..؟

تجـــــري بنا الأيّام لاهثـــــةً
فـالفـجـر تلمس كـفُّـه العَـصْـرا

يا أنتِ.. كل حدود المكان تنمحي، وتنمحي حدود الزمان.. ويصبح البعيد قريباً .. والقريب بعيداً.. يتصاغر الجبل الأشمّ.. وتتطاول السهول المنخفضة.. أتدرين متى؟.. عندما يشعر إنسان بإنسان.. وعندما يخفق قلب لقلب.. وترمش عين لعين.. عندما يصبح للكلمة ينطقها اللسان حلاوة العسل.. وللنظرة ترسلها العين نفاذ السهم.. وللبسمة يتزيَّن بها الثغر أثر السحر.. عندما تنجذب الأرواح إلى الأرواح.. هنا يصبح للأشياء معنىً أعمق من معناها الظاهر، وأسمى.

وهنا... فقط... يصبح القبح جمالاً وأيُّ جمال.

ألم تقرئي تلك القصة التي تحتفظ بها ذاكرة ماضينا؟ قصة «قبح جميل»! اقرئيها في كتاب «وحي القلم» للرافعي، لتعرفي تلك المعاني السامية التي حملتها تلك القصة.. ولتدركي أنَّ كثيراً من مظاهر القبح تخفي وراءها جمالاً، وأن كثيراً من مظاهر الجمال تخفي وراءها قبحاً.

لقد كانت لجدي ـ رحمه الله ـ مزرعة صغيرة، تلوذ أرضها بجبلٍ من الجبال فيه شموخٌ وأنَفه.. كانت تلك المزرعة في عيني جدي ملكة المزارع وسيِّدتها.. ولو رآها عابر سبيل لما أطال النظر فيها لصغرها والتصاقها بسفح ذلك الجبل.. لكنَّ مزرعة جدي في حقيقتها كانت مصدراً للرزق، بارك الله فيه، حتى غدا بمثابة الكنز الذي لا ينتهي.. في تلك المزرعة الصغيرة التي تقتحمها العيون.. كانت تنبض حياة، وفيها كانت ترفرف سعادة... وتخفق قلوب.

يا أنتِ.. يا زهرة أراها تنبت في كل أرض إلا في أرضي.. ولو أنها نبتت في هذه الأرض لكانت أروع زهرة وأجمل.. فما بالك لا تنبتين إلا في أطراف أرضٍ بور، لا أثر فيها لماء أو خضرة.

اقفزي إلى راحتي.. فسوف تجدين فيها أرضاً أوسع من كل أرض برغم مساحتها الصغيرة.. فهي قريبة من ذلك الخافق المكدود.

لله أمر الناس كلٌّ حول حاجته يطوفُ..

إي والله «كلٌّ حول حاجته يطوفُ»، ولكنَّ الناس في هذا يتباينون ويختلفون، فمنهم من يطوف حول حاجته طواف ذئبٍ غادر، ومنهم من يطوف حولها طواف عاشقٍ مجنون.. وبين هذا وذاك تختلف نيّات الطائفين.

أمَا ترين الناس يطوفون بالكعبة المشرَّفة طوافاً ذا شكلٍ واحد في ظاهره، لكنهم في حقائقهم أشدّ اختلافاً من اختلاف السماء عن الأرض، والبيضاء عن السوداء..

وما الناس إلا كالمعادن بعضها
خفيفٌ وبعضٌ طيِّبٌ وثمينُ*

لو اتفق الناس في نيَّاتهم لأصبحت الأرض بمن فيها روضةً من رياض الجنان.

في الناس من يحمل الأعباء محتسباً
فنفسه دائماً مخنوقة الذَّاتِ
وفيهم المرتمي في حضن رغبته
فما يجيد سوى جرِّ العباءاتِ*

كذلك أمر الناس...

أيتها العصفورة.. قفي من قمم الحب حيث تشائين، واقرئي على جدران الأمل تلك الأحرف التي نقشناها، إنها على عهدنا بها.. تنتظر يداً حانية تزيل عنها الغبار.

إنها حروف من نور..

وهل يطمح الإنسان إلى قراءة حرفٍ يكون أجمل من حرفٍ يكتب بنور الحبِّ والوفاء؟

خذي من القلب ما تبغين واعطيني

ومتعيني بمنثورٍ وموزونِ*

*****

(*) الأبيات المستشهد بها من شعري .

obeikandl.com

بين الانطلاق والوقوف

الرؤى تطوف بنا من كل مكان.

الأفق يتضاءل حتى يغدو لوحةً صغيرةً أمام عينيَّ، يرسم عليها الغروب أشكالاً مختلفة من السحاب، يلوِّنها بحمرة الأصيل ويصبغها بصبغة الشفق.

الليل يزاحم النّهار على نافذتي الصغيرة، التي أتطلَّع من خلالها إلى قادمةٍ لاتتوق الأقذار إلى ملامسةِ طرف ردائها الطويل...

القمر كان يرسم بنوره على أشجار التل المقابل لمنزلنا ظلالاً مختلفة، توحي بالرهبة، وتسكب في النفس لذَّةً لا حدود لها.

القمر... أرمقه من نافذتي الصغيرة، التي تمكَّن الليل أن يبعد عنها ضوء النهار ولم يتمكَّنْ بالرغم من ظلامه الدامس أنْ يبعد أشعّةَ القمر الهادئة.

أرمق القمر من خلال نافذتي.. وأحسُّ بأنه صامتٌ وأنا أتحدَّث.. ما أعجب أمر الإنسان!. لا يرى إلا نفسه، ولا يسمع إلا صوته.. نعم أقول هذا لأنني أحسست وأنا أنظر إلى القمر إنه يتحدَّث...

يتحدَّث؟!

نعم لم يكن صوته يُحْدِثُ ضجيجاً كأصواتنا، ولكنَّ صوت القمر كان يأتي حروفاً من نور تلامس وجهي، وتضفي على الأرض وقاراً حالماً، أو ما يشبه الوقار، كنت أستقبل الليل مبتهج النفس مبتسم الثغر.. لا لأنني أحب الظلام.. ولكن لأن القمر والنجوم تحمل إليَّ خيالاً قادماً من وراء الأفق.. خيالاً لا أستطيع أن أصف ملامحه، لأنني لم أره رؤية تتيح لي ذلك.. ولكنه خيالٌ مُفْعَمٌ بالطهر والنقاء.. ينساب منه إلى سمعي صوت يشبه النغم، فَيُشيع في نفسي إحساساً بالسعادة لا حدود له.

إنه خيال «المرأة الحلم»..

عجباً.. إذن فأنا سعيد.. كيف استطعت أن أقبض على عصفورة دائمة الطيران لا تستقر، ولا تتيح لأمهر الصيادين أن يصطادها؟. عصفورة «السعادة» كيف قبضْتُ عليها.. عفواً.. أيها الحُلُم البعيد القريب...

لستُ سعيداً إلى هذه الدرجة.. أنا سعيدٌ برؤيتي لتلك العصفورة الشاردة.. ولكنني شقيٌّ؛ لأن بيني وبينها مسافات طويلة من الغفلة والاستسلام.

الغفلة؟ .. الاستسلام؟

نعم غفلتها هي عن خفقان قلبي ونبض أحاسيسي، واستسلامي أنا لعجزي عن الطيران.. ومن أين لي بجناحين أطير بهما إليها؟

أيتها القادمة الحالمة.. المرأة الحلم.. العصفورة الهاربة.. إلى أين المسير؟

سؤال يطير إليك بجناحين من الصدق، لا يتعبهما الطيران.. إلى أين المسير؟

سؤال أنتزع به حشاشة نفسٍ معذبةٍ، وأبعثها إليك طبقاً شاعرياً لتضعي فيها جوابك الصريح.

إنَّ الأفق الذي نتخيَّله صغيراً ونحصره في إطارٍ من أحاسيسنا وأحلامنا، بعيدُ المدى.. إي والله.. بعيدُ المدى.

أخشى عليكِ أن تضيعي فيه.. أنْ تجدي في جوانبه من أعاصير الضياع ما يكسر قوادم جناحيك الصغيرين.. أخشى عليك من نزوات الريح، وهمزات الخوف والقلق، فإنها تعصف بقمم الراحة التي نبنيها.. إذا لم نُقِم دونها حاجزاً من الطهر والنقاء والإيمان.

ولذلك فإنني أسألك بحرقة وألم:

إلى أين المسير؟

أيتها «المرأة الحلم»..

ربما كانت الأرض من حولنا أشواكاً وصخوراً.

ربما كانت وحلاً تنزلق فيه الأقدام.

ربما كانت السماء من فوقنا ضباباً معتماً، وليلاً حالك الظلام، ولكنّ شمعةً صغيرة من تصميمنا تستطيع أنّ تعصف بذلك كلّه.

إن من الحكمة ـ أيتها القادمة ـ ألاَّ نضيِّع وقتنا في وصف الظلام وشدّته.. فخيرٌ لنا من ذلك أن نشعل قنديلاً لنخرق به صدر الليل..

إنَّ من الحكمة ألاَّ نطير في السماء.. إذا كانت عاقبة الطيران ضياعاً في الآفاق البعيدة.. أو سقوطاً مروِّعاً في الحضيض، بل من الحكمة هنا أن نقف.

أن نضع تحت أرجلنا أساساً نعتمد عليه.

وأن نتشوَّق إلى الآفاق من حولنا، لننطلق بعد ذلك إلى عالمٍ حافلٍ بالطهر والنقاء.

عفواً أيتها «العصفورة الشاردة».

فاليأس ظلامٌ يكتم الأنفاس.

ولكنَّ الأمل نورٌ يفتح أمامنا أبواباً واسعةً، ندخل منها إلى دنيا معطَّرة بالوفاء والإخلاص.

هكذا يمكن أن ننطلق.

وإلاَّ فما أجمل الوقوف لمن لا يعرف أين تنتهي به الطريق!..

*****

obeikandl.com

أيتها المسافرة إلى المجهول

١٤٠٢/٨/١هـ

أيتها المسافرة...

مازال الفجر مبهوراً بذلك الموقف الغريب.. حين هربتِ من ضيائه الساطع إلى أعماق الليل، وألقيت بنفسك في أحضانه المظلمة.

لو رأيت الدهشة في وجه الشمس، لعلمت بأنك صنعت شيئاً عظيماً.

حتى أنا تساءلت ـ حينها ـ كيف تهرب فتاة عاقلة من ضوء الفجر إلى ظلمة الليل؟

كيف تتحدر من القمة إلى السفح؟!

حتى البلبل الذي عوَّدنا على شدوه الجميل مع إطلالة الصباح، تضاءل وارتعش، وأخذ يسكب في آذاننا شدواً مأساوياً حزيناً، وكأننا في مأتم من المآتم، ولسنا في عرس من أعراس الزمان.

هل نلوم البلبل على ذلك؟ كلا.. فإنه يعبر عن حزنه عليك أيتها المسافرة.

لقد تذكرت عند هروبك تلك الفتاة الشقراء (كارينا)، التي هربت من مزرعة أبيها الوادعة في إحدى الضواحي البعيدة، وارتمت بين أحضان مدينة من المدن (الصاخبة)، ولم تزل تنتقل من حانة إلى حانة، ومن مرقص إلى مرقص، حتى شاء لها الله أن تصحو ذات يوم على مأساتها «الحقيقية».

لقد أفنت ما يزيد على الخمسين عاماً من عمرها.. فماذا جنت في هذه الرحلة الطويلة؟ المال؟ الشهرة؟ وماذا بعد؟

أخذت كارينا تنظر إلى تلك العيون التي كانت تهيم بها.. وكانت ترتع في ملامح وجهها الوسيم، وفي تقاسيم جسدها الرشيق.. فهالها أن تلك العيون لم تعد تنظر إليها.. فقد اتجهت إلى ملامح وجه آخر، وتقاسيم جسد آخر، لم تزل صاحبته تشق طريقها في خضم الحياة مبهورة بأضواء تخفي وراءها اللهب.

كادت (كارينا) أن تموت من الحسرة، وحاولت أن تجذب إليها صاحبة ذلك الجسد الجديد والوجه الجديد لتحذرها من خطورة الطريق، ولكنها لم تستطع.. فأخذت تستعرض أمامها شريطاً طويلاً من الذكريات، لم تكد تأنس فيه إلى صورة من الصور، حتى وقعت عيناها على صورة رائعة، صورة تبدو فيها فتاة في ميعة الصبا، تنقل عينيها الساحرتين بين

وردة حديقتها وأزهارها، وتقفز من مكان إلى مكان، ولولا أنها كانت تتحرك بين تلك الأزاهير لظنها الناظر إليها واحدة منها.

لم تعرف كارينا من هي تلك الفتاة التي تهيم بالزهور، وإن الزهور لأشد هياماً بها، وتعشق الروض، وإن الروض لأكثر عشقاً لها.

وتمنت (كارينا) لو أنها إلى جوار تلك الفتاة تنعم ببسمتها الحلوة الساحرة، ولكنها عادت تسأل نفسها (كيف أستطيع ذلك؟) وهل تقبل تلك الزهرة أن أصاحبها..؟ وأين أنا منها؟ هي زهرة بريئة بين الزهور، وأنا...

وتركت (كارينا) دموعها تتحدث عن مأساتها، فهي التي تستطيع أن تعبر عن حقيقة شعورها.

وفجأة توقفت (كارينا) عن البكاء.

وأخذت تتأمل الصورة التي أمامها من جديد.. فرأت رجلاً عجوزاً قد تركت متاعب الأيام آثارها على تجاعيد وجهه، وهو يدنو من تلك الفتاة (الزهرة) ويقبلها على جبينها، ويقول لها ببسمة حنونة: هيا يا كارينا، تعبت يا ابنتي..

وما هي إلا لحظات حتى انكبت (كارينا) على وجهها وهي تنتحب، ثم رفعت رأسها وهي تقول: كنت في تلك الروضة

كالزهرة.. والآن.. أصبحت عجوزاً تقتحمني العيون التي كانت توهمني بالعشق، وتساءلت (كارينا) في حسرة قاتلة.. أي جناية جنيت على نفسي؟ ثم أسلمت الروح.

أيتها المسافرة.

لقد تذكرت قصة (كارينا) وأنا أراك تشيحين بوجهك عن ضوء الفجر، وتهربين إلى الليل.. لقد عرفت جزءاً من سبب هروبك.. إذ شاهدت بريقاً يشق ظلام الليل.. كان بريقاً قوياً ـ بلا شك ـ، ولكنه سرعان ما يخبو عندما يبدو ضوء الفجر. فانظري.. إلى أي الضوءين تأنسين، وبأيهما تستنيرين؟!

هنالك أسباب دفعتك إلى الهروب ـ بلا شك ـ ولكنها أهون مما تقدمين عليه فهل تريدين أن تكوني (كالمستجير من الرمضاء بالنار)؟

سلام عليك.

أيتها المسافرة إلى المجهول.. ليت شعري أي جواد قد امتطيت؟ وأية وجهة قد اتجهت إليها..؟

ليت شعري.. كيف تأنس خصل شعرك إلى عبث الريح الهوجاء، ولا تأنس إلى مداعبة النسيم العليل؟

أيتها المسافرة إلى الأفق البعيد.. أتدرين ما ستجدين هناك؟

هنالك شوك في صورة زهور.

هنالك ليل في صورة فجر.

هنالك ذئب في صورة حمل.

وهنالك حقد في صورة بسمة.

أيتها المسافرة.. عودي إلينا.. روِّضي جوادك الجموح، فمازلت ألمح في عينيك لهفة إلى شموخ جبالنا، ورحابة صدر صحرائنا.

مازلت ألمح في عينيك شوقاً إلى ذلك الفارس الذي يريك الزهرة زهرة، والشوكة شوكة، ويريك الفجر فجراً. والظلام ظلاماً، دون أن يضع على وجهه قناعاً جميلاً ليستر وراءه ما تحمل تقاسيمه من قبح وتقطيب.. ولن تجدي هذا الفارس في ذلك العالم المسحوق الذي أراك تُيمّمين وجهك إليه.

أيتها المسافرة..

هل لي أن أنقل إليك عجبي من رجل وامرأة رأيتهما ذات يوم..

كان الرجل يبحث في أرض مقفرة عن زهرة، مع أني كنت

ألمح في يده زهرة ناضرة وإنه لكذلك فما راعني منه إلا سقوطه على الأرض، حيث انفلتت الزهرة من يده لتحملها الريح إلى حيث لا أعلم ولا يعلم صاحبها.. وما هي إلا لحظات حتى قام الرجل من سقطته وعلى وجهه آثار الخيبة والخسران.

أما المرأة .. فكانت تسير بخطى ثابتة وقورة في الطريق، دون أن تمتد إليها يد، أو تقتحمها عين.. وما هي إلا لحظات حتى رأيتها تتلفت يمنة ويسرة.. فاضطربت خطواتها.. وتلاشى ذلك الوقار الذي كان يكسوها.. فإذا بها لا تدري أين تتجه لتهرب من نظرات العابرين، ولتنجو من تلك الأيدي التي أخذت تمتد إليها من يمين وشمال..

أيتها المسافرة..

أرجو ألا تكوني تلك المرأة.. وألا أكون ذلك الرجل..

حكاية

يروى أن كسرى كان جالساً في إيوانه ذات يوم، فإذا بحية تزحف إلى عش حمامة في إحدى زوايا الإيوان، فأخذ (كسرى) سهماً وصوبه إلى تلك الحية فقضى عليها وقال: هكذا نفعل بمن يؤذي من استجار بنا.. ومضت أيام قلائل وبينما كسرى جالس في ذلك المكان وحوله عدد من وزرائه

وكبار دولته، إذا بالحمامة تقبل حتى إذا حاذت المجلس ألقت ببذرة فأمر كسرى بغرسها، فنبتت تلك البذرة (ريحانة)، وكان ذلك أول عهدهم بالريحان، فقال كسرى عندما علم بذلك: .. نِعْم ما كافأتنا به الحمامة..

*****

obeikandl.com

الركض في عروق القصيدة

١٤٠٦/٤/١٩هـ

اركضي في عروق قصيدتي.. فأنت دمها.. وروحها.. وحياتها.. سافري بألحاني إلى كل مكان.. حلقي في كل سماء.. غوصي في كل محيطات الدنيا.. قولي للفجر الطالع: يا فجر توقف.. فأنا هنا.

قولي لرمال الشاطئ: يا رمل تحول تحت قدميَّ ذهباً.. فأنا هنا.

اركضي في عروق شعري..

لا تدعي حرفاً من حروفه يفلت من بين يديك.

أسمعيني نغماً عذباً يغسل عن قلبي أدران الحزن.. ينقلني فوق قطار الأمل إلى كل رياض الدنيا.. ويحلق بي في الآفاق، ويعلمني كيف يكون الصبر.. كيف يكون الإحساس الصادق، كيف يكون الإخلاص.

عجباً، من أنت ؟ ومالي أسكب شعري في كأس الشوق وأبعثه نحوك.

من أنت.. وكيف سمحت لقلمي أن يطلب منك الركض في عروق شعري؟

هل أنت اللهفة تخطر في ثوب فتاة؟
أم أنك ذوب الحب يصير أمامي جسداً؟

أم أن خيالي يوغل في التصوير، فيجعل من هبات نسيم الروض خيال نسيم.. ويجعل من ضوء القمر بحاراً من نور.. وأنا أمخرها من غير شراع؟

عفواً إني أكتب وسؤال يتسلل إلى ريشة قلمي.. يجعلني أسأل نفسي لمن أكتب يا سيدتي؟

ولماذا أقتل هذا القلم بهذا الركض؟

إن قلت بأني أكتب للحب ولك، فلماذا لا أكتب شيئاً تقرأه عيناك فيغوص إلى أعماق فؤادك؟

ولماذا لا أرسم من ومضاتي صوراً للحب، ترين ملامحها رأي العين؟ أكتب للحب ولك؟

فلماذا يبقى ما أكتب كالظلمة لا يتبين فيها السائر دربه؟
ولماذا أغمس هذا القلم المسكين الحائر في زيت اللاوعي؟

عفواً.

إن قلت بأني أكتب للناس، فلماذا لا أكتب للناس؟ ولماذا أجعلهم يقفون أمام حروفي مشدوهين.. ولماذا أغلق أبواب كلامي في وجه العقل.. وأقول بأن الناس بلا أفهام؟ الناس بلا أفهام؟

هذه بدعة بعض المبهورين.. الناس بلا أفهام؟ فإذن.. كيف يعيشون؟ بل كيف يرون الحق ويسعون إليه..؟.. ويرون الباطل ويثورون عليه؟

الناس لهم أفهام وعقول.. لكن الكاتب حين يكون ضحية لحظات «اللاوعي» يكون بغير فهم.. وبلا تفكير.. اللاوعي..؟

أعجب من هذا التركيب الأعمى.. أعجب من هذا التخريب الأدبي يجتاح عقول كثير من حملة أقلام اليوم.

اللاوعي..

لحظة ضعف الإنسان.. لحظة غياب التفكير.. وغياب العقل.. ماذا ينتظر القارئ ممن يكتب في لحظات اللاوعي؟

أكتب للناس؟

فلماذا لا أتلمس بالوعي قضاياهم؟ ومشاعرهم؟ ولماذا لا أجعل من قلمي مشرط جراح لأعالج كل جراح الناس؟ بل لماذا لا أجعل من قلمي منديلاً يمسح كل دموع المنكوبين؟

الوعي.. العقل.. الإدراك.. الإيمان.. كلمات كتبت في قاموس البشرية منذ قديم الأزمان.. كلمات تعني المجتمع الإنساني الصالح.. تعنى الخير.

أتراني آتي في ظلمات القرن العشرين لأبدل خارطة الدنيا.. ولأجعل من كل الناس ضحايا للأوهام.. واللذة.. واللاوعي؟ ما أعجب أمر المتهاون بالكلمة.. ما أفظع أمره. الكلمة يا سيدتي نزف للقلب في لحظة وعي الإنسان.. وهنا تأتي الكلمة كـ للبنة في إتمام بناء البشرية.. والكلمة حين تجيء ملفعة بضياع «اللاوعي»، تأتي كالمعول يهدم بنيان البشرية..

وهنا أتوقف لأقول:

اركضي في عروق قصيدتي.. حباً.. وأملاً.. وإشراق حياة.. اركضي.. نبراساً يضيء طريقي.. ثوباً يسترني، يمنعني من سطوات البرد القارس في ليل شتاء.

اركضي.. بسمة خضراء تجعلني أرسم للعالم منها صورة حب ووفاء.. تجعلني أنسج للعالم منها خيمة إيمان وأمان .. ياأنت.

دنيانا تغدو غابة.. تغدو صحراء قاحلة جرداء.. حين نسير بغير هدى..

الدنيا تغدو روضة غناء.. تغدو فجراً ينبض بالنور.. حين نسير على وعي وبصيرة.

الكلمة.. ما الكلمة؟ نبض فؤاد؟.. دمعة عين.. حمرة وجه خالطه الحزن.. أو خالطه الفرح.

والقلم الغائص في بحر الكلمة.. كم هو بحاجة إلى يد لا تخبط خبط عشواء.

وبعد ذلك ـ تتراءى أطياف الأمل الباسم تشرق شمس الخير.. تمتد يد الفجر مبللة بالطل، لتغسل عن أزهار الروض غبار الخوف.

ويظل الصدق علامة مميزة لكثير من الأقلام، ويظل الناس بخير.

ويظل الوعي يحطم أوهام «اللاوعي»، وأظل أقول:

اركضي في عروق قصيدتي.. فأنت دمها.. وروحها.

من شعري:

وقبيح من الفتى أن يكون الرأس

في قومه، فيصبح ذيلا

وقفتان:

الوقفة الأولى:

القصيدة قلب آخر لصاحبها.. قلب ترسمه الكلمات... ويشكل الإحساسُ الصادقُ عروقَه.. وهو قلب نابض.. لنبضاته إيقاع جميل.. يتسلل إلى داخل النفوس، ويحدث فيها من الأثر ما الله به عليم.. وعروق القصيدة لا تحتمل إلا ركض الأحباب، تماماً كما أن عروق القلب لا تحتمل إلا ركضهم.. القصيدة «القلب» تنبض عندما يكون صاحبها صادقاً مع نفسه لحظة كتابتها.. عندما يكون واعياً بالحروف التي يسطرها... واعياً بقيمة الكلمات التي يكتبها.

القصيدة «القلب» لا تأتي من تقليد فارغ تفقد معه معنى حياتها ونبضها.. ولكنها تأتي في لحظة من لحظات الإلهام الغنية بعطاء المشاعر وصدق العطاء..

وما أدراك ما عطاء المشاعر؟! إنها تعطي حباً.. ووفاء.. وثقة ويقيناً.. عند ذلك يكون القلب «قصيدة»، وتكون القصيدة «عروقاً» تصلح لركض الأحباب، كما أن للقلب «عروقاً»، وهنا تجدين القصيدة «القلب»، وتقرئين القلب في «قصيدة»!..

الوقفة الثانية:

من شعري:

أوَ تدعي حـــبي، فـــأين عطاؤه؟

أسـمـعت عن حب بغـيـر عطاءٍ؟!

أسـمـعت عن شـوق بغـيـر تحـرُّقٍ

أسـمـعت عن أرض بغـيـر سـمـاءٍ؟

أسـمـعت عن ليل بغـيـر ظلامـه

أسـمـعت عن فـجـر بغـيـر ضـيـاءٍ؟

هبني فـمـاً يشـدو، وهبني خـاطراً

يسـلـو، وخـــــذ مـنـي أرق غـنـاءِ

*****

obeikandl.com

بين الحياة والموت

٢/٦/١٤٠٦هـ

لحظات الغفلة تمتد في حياة الإنسان حتى تصل به أحياناً إلى موت الضمير.. وعلى مقدار قرب الإنسان وبعده عن منهج الله يكون نصيب لحظات الغفلة من حياته.. وإذا تجاوزت لحظات الغفلة حدودها، وأحكمت مدّ أسلاكها الشائكة حول قلب الإنسان، فإنها تصل به حينئذ إلى مرحلة «الرّان» التي عبَّر عنها القرآن الكريم تعبيراً واضحاً في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهنا يصبح القلب كالحجر، أو يكون أشد قسوة منه.

رحلة الإنسان بين الحياة والموت رحلة مليئة بالتعب الذهني والجسدي.. ولذلك فإن من أهم ما يميز الحياة الدنيا أنها حياة تعب وعمل متواصل.. أي أنها تمثل مرحلة الحرث والزرع بما فيها من دأب على البذر والعناية بما هو مزروع، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الحصاد. ومرحلة الحصاد بالنسبة للإنسان هي الآخرة.. فإما أن تكون الثمار طيبة، وإما أن تكون غير ذلك.

لحظات الغفلة في حياة الإنسان تفسد عليه لذة المرحلة

القادمة أعني مرحلة الحصاد.. تماماً.. كما يحدث ذلك بالنسبة للفلاح الغافل عن مزرعته المتهاون بها.

رحلة الإنسان بين الحياة والموت.. مرحلة عطاء.. والعطاء يتخذ أشكالاً مختلفة.. ولكنه يظل فيها جميعاً مرهوناً بصفاء سريرة المعطي وحسن نيته.

فمن الناس من يُعطي ليأخذ أكثر مما أعطى، ومنهم من يعطي ليأخذ مثل ما أعطى.. ومنهم من يعطي من باب التمهيد للانتهاز والاحتيال، ومن الناس من يعطي العطاء الطيب لوجه الله تعالى.. وهذا هو الصنف البشري الراقي الذي يمارس إنسانيته المطهرة من شوائب الاعتداء والحقد والحسد، بل هو الإنسان المثالي الواقعي!

عجباً.. كيف تجتمع المثالية والواقعية في إنسان؟!

سؤال له ما يبرره في ظل التكالب البشري على الدنيا وما فيها.. لكنه سؤال غير منطقي في ظل الحقيقة الصافية لفطرة الإنسان السليمة، تلك الفطرة التي كان الإسلام العظيم الدين السماوي الخاتم الذي جاء بما يحقق صفاء فطرة الإنسان، أو يحقق ما أسميناه «بالمثالية الواقعية» وحتى لا تشط بنا هذه «الاستطرادة» أضرب مثلاً سريعاً..

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو أمير المؤمنين ـ يقوم بدور العسس في الليل يتفقد أحوال الناس.. إنه بذلك يقوم بعمل مثالي في عرفنا.. ولكنه في نفس الوقت عمل واقعي طبعي في عرف سلفنا الصالح، الذين أدركوا حقيقة الإسلام، والذين رأوا المثالية الواقعية تتحقق أمامهم في شخص رسول الله ﷺ.

إذن نستطيع أن نقول: إن لحظات الغفلة التي تسيطر على ذهن الإنسان وقلبه تسلبه جانبين مهمين من جوانب إنسانيته، فهي تسلبه «صفة العطاء الطيب»، وتسلبه «المثالية الواقعية» التي أشرنا إليها.

وفي ظل لحظات الغفلة الإنسانية نشأت صفات الحقد.. والحسد.. والخداع.. والاحتيال.. والظلم.. وجميع أصناف المفاسد والأخطاء.

عفواً ـ قارئي العزيز ـ..

أتدري ما الذي دفعني إلى هذه المعالجة لموضوع لحظات الغفلة.. أو «رحلة الإنسان بين الحياة والموت»؟

ليس معنى ذلك ـ أبداً ـ أنني بمنجاة منها.. ولكنني رأيت ذات يوم.. آثار الغفلة ماثلة أمامي.. وإليك البيان:

كنت أقف على رصيف أحد شوارع الرياض الكبرى.. وكان الوقت ليلاً والأضواء تجعل من جنبات الشارع مهرجاناً لضوء يبتدئ مع بداية الظلام.. وتركزت عيناي على الحائط المقابل، وأخذت أتأمل ما فيه من لوحات الدعاية والإعلان التجاري بأشكال فنية مختلفة، والملصقات تبهر العين بتعدّد ألوانها الجميلة.. كل ما على الحائط يدل على الحياة والتجارة والحركة المادية النشطة.. إعلانات ودعايات عن أصناف الكماليات التي تزيد من راحة الإنسان، حتى حركة الشارع توحي بمدى سعي الإنسان الدائب.. السيارات تنهب الطريق، والمارة يغدون ويروحون وبأيديهم أصناف مما ابتاعوه من السوق.

لقد استغرقت حينها، في تفكير عميق.. وأنا أتأمل حياة الإنسان وسعيه وكدحه من أجل لقمة العيش.. ولا أدري كيف عادت عيناي إلى الحائط المقابل أتأمل ما عليه من ملصقات الدعاية ثم أحسست حينها برعشة تسري في جسدي وسؤال يبرز أمامي يتحدى صمتي وحيرتي..

أتدري ما وراء هذا الحائط؟

وتحوّلت كل معالم الحياة التي أراها أمامي إلى أشباح

أو ما يشبه الأشباح، ورحت عن مكاني قليلاً لأتكئ على مقدمة سيارة فارهة كانت ورائي.. وشعرت أن تلك الرعشة قد تحولت إلى دمعة نجحت عيني في إخفائها.. ولكن تلك الدمعة تحولت إلى غصة في الحلق.. وبرز السؤال مرة أخرى..

أتدري ما وراء الحائط المقابل؟

وأحسست أنني أقول: نعم.. لأنني أعرف من قبل أن هذا الحائط يحيط بمقبرة قديمة.

مقبرة؟ نعم.. أي أنه حائط يفصل بين بشر قد سكنوا، - فهم في قبورهم هامدون - وبشر يتحركون، يغدون ويروحون.. حائط فقط يحول بين الأموات والأحياء.. من هنا حركة دائبة، وملصقات تجارية، وبيع وشراء، وصدق وكذب، وأمانة وخيانة.. إلى غير ذلك من أشكال التعامل بين البشر.

أمَّا من هناك.. فالقبور بدل القصور، والأموات بدل الأحياء، والأعمال بدل الأموال.. هناك التمحيص والسؤال.. هناك مرحلة الحصاد..

ألم أقل لكم إن مرحلة الغفلة طويلة في حياتنا؟

ألم أقل لكم إننا نبذل للحياة الفانية أضعاف ما نبذله للباقية؟

عندها أحسست إحساساً عميقاً بغفلتي.. كم من مرة أقف فيهاأمام ذلك الحائط أقرأ ما عليه من الملصقات.. وتصرفني غفلتي عن قراءة ما وراءه من العبر والعظات.

عفواً ـ قارئي الكريم ـ لست راهباً ولا متزهِّداً.. ولكنني إنسانٌ مسلم شعر في تلك اللحظة بمدى انصرافه في خضم الحياة المعاصرة. عن ذلك الصمت المطبق وراء ذلك الحائط المملوء بالملصقات .. اللهم عونك!

من شعري:

لقَّنتنا مدارس العصر شيئاً
فنسينا به جلال القديم
وغدونا مثل الغراب ضياعاً
ومشينا مشّي الضعيف السقيم
ربما يرتدي العدوّ ـ نفاقاً
وخداعاً ـ ثوبَ الصديق الحميم
ويرينا من ثغره بسماتٍ
ويأحشائه سُعار جحيم

*****